13 me Année No. 638

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi - 24 - 9 - 1945

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٣٨ « القاهرة في يوم الإثنين ١٨ شوال سنة ١٣٦٤ — ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

أهدافنا القومـــــية والقضـــــايا العربية

للأستاذ توفيق محمد الشاوى

أمة تكافح في سبيل حريتها ومجدها ، لا يكفي لكي تحقق هذه الأهداف إيمانها بحقوقها فحسب ، بل لا بد لها من الإيمان برسالة إنسانية عالية تؤديها ، وبقدرتها على انتزاع حقوقها وأداء رسالتها ، ذلك الإيمان الذي تبعثه العزة ويغذيه الطموح .

ذلك شأن شعب مصر المجيد الذي علم التاريخ في جميع العصور أن مجده لا يعرف الحدود ، وأن رسالته عالية لا تحدها الأقطار متى نهض للسيادة واستيقظ للكفاح ؛ فكيف يقنع في هذا القرن العشرين بأمل لا يتجاوز القنال ، ومجد يقتصر على ما يسمونه « الاستقلال » ؟ وقد علمته تجارب العصر أن عهد الأمم الصغيرة قد زال وانقضى عصر الدول ، وأصبحنا في عصر « الاتحادات » و « الكتل » ، ولم تعد دولة واحدة تستطيع أن تقف على قدميها وحدها ، إلا إذا احتمت بمجموعة من الدول تشاركها في المصلحة والغاية إن لم تشترك معها في الوطن أو العنصر .

هذه حقائق لا تمر بخاطر طائفة من القاعدين المثبطين ، دأبوا على نقد كل عامل والسخرية بكل داع ؛ قالوا : كيف تشغلون هذا الشعب بقضايا العروبة في فلسطين والشام والمغرب ، وكيف تطالبونه بالجهاد في سبيل هذه الشعوب ، وفي سبيل العروبة والإسلام في كل مكان ، وهو لا يكاد يطيق الجهاد في سبيل استقلاله المحدود ؟ إنكم بذلك تشغلونه عن « أهدافه القومية » بأحلام بعيدة المنال !

تلك والله آفة العاجزين المتخاذلين — يعجزون عن العمل ويجبنون عن الجهاد ، فلا يرضيهم أن يعمل المؤملون أو يتقدم القادرون . ويأبون مواجهة الناس في صورة الجبناء الضعفاء ، فيلبسون لهم مسوح الناصحين ، ويحدثونهم بلهجة الواعظين ، ويرمون سواهم بدائهم ، يزعمون أننا خياليون ، وهم هم الواهمون المتخيلون إذا كانوا يظنون أنه يتحقق لهم « استقلال » في القاهرة إذا بقي الاحتلال في القدس أو الخرطوم أو بنغازي .

كلا والله ، إنها أمة واحدة ، جمعها التاريخ المجيد والعنصر الكريم والقومية العربية ، وجمعتها رسالتها العالية الروحية . وإنه لوطن واحد مهما تعددت أقطاره من عراق أو شآم أو حجاز أو مغرب أو سودان أو سواها . وإنها لقضية واحدة ، قضية الحرية الإنسانية ومبادئ الأخوة والسلام والعدل التي تمثلها حضارتنا المشتركة . فليسترح دعاة التفريق والتمزيق ، وليكفوا عن مواعظهم ، فإنما هي رقى الاستعمار ودعوة الاستعباد

ونحن المؤمنين بحقوق هذا الشعب ، المؤمنين أيضاً بقوته

وحيويته ومجده ورسالته لا نفتأ نذكره بمجده العظيم الذى يعشقه ويصبو إليه ، ونذكره بقضايا الوطن العربى الواسع الذى يزيد اتساعه قوة وأملا ، وندعوه المرة بعد المرة لإنقاذ إخواننا المجاهدين فى كل قطر ؛ واثقين من قدرته على استعادة مجده وأداء رسالته بفضل حيويته وتضامنه مع الشعوب العربية الأخوى ؛ موقنين أننا إنما نعبر عن روحه الوثابة التى أنشأت امبراطورية عربية عظيمة فى بضعة أعوام فى عهد عاهله العظيم « محمد على » ، عالمين أن « الاستقلال » هو أول الأهداف لا نهايتها ، وبدء الجهاد لا غايته التى تتسع لكل ما يصبو إليه العرب والمسلمون من عزة وسيادة ووحدة ، ومايتنظره العالم منهم من رسالة إنسانية سامية خالدة

تلك هى « أهدافنا القومية » ، فمن كان يقنع بما دونها فليس من سلالة الفراعنة ، ولا من روح العرب ، وليس له إلا أن يفسح الطريق لركب المجاهدين الطامحين العاملين لعزة العروبة ورسالتها .

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق — بجامعة فؤاد

على هامش (الحوادث)

كلمة إلى الجنرال ديجول !

للحقيقة وللتاريخ لا للتشفى والهجاء . . .

للأستاذ على الطنطاوى

رأيت فى سينما ديانا بالقاهرة منذ شهور جريدة الأخبار الفرنسية تعرض سوراً من انهيار ألمانيا ، فترى المهاجرين من النساء والعجائز هائمين مشردين ؛ ثم تعرض منظراً مثله كان فى فرنسا يوم انهزمت فرنسا ، ويعقب المذيع فيقول بصوت خافت رهيب : « إن فى الكون عدلا ! » وترى المدائن المخربة ، والذعر البادى ، والتبار الشامل ، ثم تعرض مثل ذلك مما كان فى فرنسا ويعقب المذيع فيقول : « إن فى الكون عدلا » !

نعم ، يا جنرال ، إن فى الكون عدلا ! ولكن قومكم ما استوفوا بعد قسطهم من عدل الله ، وآية ذلك أنكم أصبتم فبكى لكم أعداؤكم ، ورحمكم خصومكم ، وكنتم عند الناس ضحية القوة العاتية ، وشهداء العدوان المجرم ، وكنت تثير الدنيا على الألمان أن حاربوا قومك ، وقومك هم أعلنوا الحرب ، وهم تقدموا إليها ، وهم (زعموا) بنوها ، قد غذوا بلبانها ، وربوا فى ميدانها ؛ فلما نبت ريشك ، ورُدّ عنك عدوك ، وأغضى عنك الدهر إغضاءة ، نسيت كل ما كنت فيه ، وما كنت تقوله وتخطب به ، وأقبلت تجرب سلاحك فينا ، فأخذتنا على ساعة غرة بحرب ما آذنتنا بها ، ولا أعلنتها لنا ، فسخرت لقتالنا مدافعك وطياراتك ، ويا ليته كان سلاحك يا أيها المحارب الظافر، ولكنه سلاح أعطيته عارية لتحارب به عدو صاحبه وعدوك ، فحاربت به قوماً آمنين ! حاربت يا أيها البطل النساء فى الخدور ، والأطفال فى المدارس ، والمرضى فى المستشفيات ... وما هابك النساء ولا الأطفال ولا المرضى ، ولا رفعوا مثل العلم الأبيض ، الذى رفعه قومك حين كان لهم سلاح ، وكان لهم خط ماجينو ، لأن لهم من إيمانهم حصناً لا تهدمه قنابلك ، ولا تحرقه نارك !

وهذا الجيش (يا جنرال) الذى عقدت له اللواء ، ورفعت فوقه العلم ، وائتمنته على شرف فرنسا وتاريخها ، قد أهوى باللواء ، وطوح بالعلم ، وعبث بالأمانة ، حين سطا على الخازن ، فكسر أقفالها ، وفتح أبوابها ، وأخذ ما فيها ، وذلك فعل اللصوص لا الجنود !

ثم عاد فأوقد فيها النار ، فأحالها إلى جهنم الحمراء ، ليخفى باللهب سرقته ، وذلك صنع المجرمين لا المقاتلين !

ثم وقف يتربص ، فكلما أقبل من يطفئ النار ، وينقذ الأطفال رماه فأصماه ، وذلك عمل القتلة السفاكين ، لا الأبطال المحاربين !

جيشك هاجم المستشفى الوطنى ، وسلط ناره من أفواه رشاشاته ومدافعه على الجرحى والمرضى ست ساعات متواصلات متتاليات ، ولم يقدر بعد ذلك إلا على أربع ممرضات شواب أخذهن « سبايا » !

جيشك يا رجل الديمقراطية ، يا سليل من أعلنوا حقوق الإنسان ، هاجم البرلمان وفعل به الأفاعيل ، ومثل بشرطته فبقر بطوناً ، وسمل عيوناً ، وقطع أطرافاً ، وها هو ذا البرلمان تركناه ليشهد عليكم أبداً ، فتماثيل الدماء على جدرانه الصدعة ، وأبوابه المخلعة . ولقد وجدوا صندوق البرلمان وفيه المال ... وجدوه بعد ذلك فى دار القيادة الفرنسية ، وهم طبعاً لم يسرقوه ، ولكن أخذوه ليحفظوه !

جيشك رمى قنابل الطيارات على السجون ، حيث لا علك

من فيها فراراً ، فجعل السجن لمن فيه قبراً !

المستشفى العسكرى يا جنرال جعله جيشك قلعة فيها مدافع الهاون ، ومنه أحرق سوق صاروجا هذا الحريق الذى أكل ثلاثاً وتسعين داراً ... ومدرسة الفرنسيسكان كان فيها الرشاشات ، تطلقها بأيديها الطاهرات ، الراهبات المتبتلات ، ذوات الرحمة المسالمات !

نسخة التوراة التى سرقت من سنوات ، وهى أقدم نسخة فى العالم ، وجرت لها تلك المحاكمة المشهورة ، وقضى على طائفة من الأطناء بأشد العقاب ، وجدت فى دار المستشار الفرنسى لما كبست بعد الحادث داره ، ويقدر ثمنها بنصف مليون فرنك !

القاضى الفرنسى الذى جئتم به إلى المحكمة المختلطة ، لأن قضاتنا فى دعواكم لا يطمأن إلى علمهم ونزاهتهم ، المسيو سيرو ، وجد فى داره رشاش كان يقتل به الناس فى تلك الأيام السود ، وهو الذى جئ به ليقضى على القتلة والمجرمين !

إن بطريرك موسكو وكل الروسيا ، كان فى فندق الشرق (أوريان بالاس) يوم الحادث ، يوم عصفت هذه العاصفة فى رأس قائدك أوليفاروجه ، فنسى كل ما يعتز به البشر من فضائلهم — فلبث فى الملجأ المظلم تحت الأرض ليلة كاملة ، قال لما انقضت : « لقد كنت فى ستالينغراد يوم ضربها الألمان ، فما رأيت أكثر مما رأيت الليلة » !

ولما قدمت دمشق زوجة رئيس الجامعة الأميركية فى بيروت السيدة دودج ، ورأت آثار العدوان ، قالت : لقد قتل ابنى الوحيد فى فرنسا ، فكان يصبّر النفس عنه أنه مات فى سبيل الحق والإنسانية ، أما الآن ، فواطول حزنى وكمدى ، لقد أيقنت أن ابنى مات فى سبيل (لا شئ) !

* * *

يا جنرال ! لما ذهبت أزور القلعة بعد الحادث بأيام لم أستطع أن أدنو منها من رائحة الموت ، إذ تفوح من آلاف الجثث ، جثث الأبرياء التى كانت بالأمس رجالا كراماً ، كانوا ملء الدنيا حياة ونشاطاً ، وكانوا ذخر عائلاتهم وبلادهم ، فصاروا ... أكواماً من اللحم العفن الذى يؤذى العين والأنف !

لم ينج من شر جيشك الأحياء ولا الأموات . ولقد أبصرت فى (الدحداح) قبوراً قد نبشتها القنابل ، وقذفت رممها ، أفإن عجزت عن حرب أعدائك الأقوياء ، جئت تحارب موتانا ؟

لقد كان ذلك كله ، وكان أكثر منه ، أفهذا من العدل الذى تهتف به ؟ لا يا جنرال ، إن كلمة « العدل » أكرم من أن تمر على لسان من صنع ذلك الأمر المعجى بضرب دمشق أقدم مدينة عامرة على ظهر الأرض بلا استثناء ، وأكاد أقول أجلها . إن الشفاه التى تعرف كلمة « العدوان » ، لا يمكن أن تألفها كلمة « الحق والعدل » !

* * *

ولكن « فى الكون عدلا » ! نحن نقولها الآن ! وإن من عدل الله أن جعل صبرنا نعمة علينا ، وعدوانكم وبالا عليكم !

لقد انتهت الرواية ، وأسدل الستار ، فتعال ننظر ما ذا ربحنا وما ذا ربحتم ؟ لقد خسرنا منازل من أحسن منازلنا ، ورجالا من أكرم رجالنا ، وملايين من حرّ أموالنا ، ولكنا ربحنا الخلاص منكم ، والاستقلال عنكم ، وسنبنى الدور ، وتلد الرجال ، ونعوّض المال ، فما ذا ربحتم أنتم ؟ ما ذا ؟ يا من كشفت للناس عن حقيقتك ، وأنك ما خلقت لتسوس الأمم ، ولا لتحكم الشعوب ، ربحت بغضاء لا تمحى . لقد أسأت إلى التاريخ الفرنسى والثورة الفرنسية والأدب الفرنسى ، ولطخت بالوحل أسماء كانت فينا لامعة نظيفة ، وكان لها فى النفوس مكان ، وسيتوارث العرب كلهم والمسلمون هذه البغضاء بطناً بعد بطن ، وستزيد وتعظم ، وتغدو تراثاً مقدساً ، لايشذ عنه إلا هؤلاء النفر من الأدباء الذين باعوا دينهم وإخوانهم بذكريات غرام لهم هناك ... وهؤلاء ليسوا منا !

لقد أثمرت هذه البغضاء باكورتها ، فلم يبق فى سورية كلها لوحة عليها حرف فرنسى يقرأ فى طريق ، ولا كتاب فرنسى يدرس فى مدرسة ، ولقد كان مهرجاناً قومياً يوم أحرقت فيه الكتب الفرنسية فى مدن الشام !

وبعد يا جنرال ، إن فى الوجود شيئاً أعظم من الدبابات والطيارات والقنابل الذرية ، هو حب الموت !

فالذى لا يخاف الموت لا تخيفه آلاته مهما جلّت وعظمت ، فمن يطلب الموت فهو أكبر من الموت ، لأنه أكبر من الحياة ، ونحن قوم علمنا نبينا محمد ألا نخاف الموت فى سبيل الحق ، فلن يخيفنا شئ فى الدنيا !

(دمشق)

علي الطنطاوي

القاضي

قبل الأزمة:

اليـــابان الغامضة

[صورة لحياة هؤلاء الذين أقاموا أحد شعبين من أعظم شعوب العالم تعصباً]

للأستاذ ويلارد بريس

لعل أهم ماعيّز اليابان عنا معرفتها إيانا وجهلنا بها ، فإن من أهم مبادىء الحرب هى « أن تعرف عدوك » كما أنه من ضروريات السالم فى زمن السلم هى « أن تعرف جارك » . فاليابان هو القطر الذى لا تستطيع أبصارنا أن تنفذ إليه ، وكلما مددنا البصر نحوه لم نر غير صورة مصغرة منا ، ولعل هذه الحال قد جاءت من خلل فى المرآة التى تعكس صورتها لنا ، أو لعلها من خداع أبصارنا . فقد تتلمذ اليابانيون علينا واستمدوا منا وسائلنا وأخذوا عنا طرقنا وتخيل إلينا أنهم قد أخذوا عنا كل ما يعرفونه .

إن سر اليابان يحجبه عنا تلك المرآة التى خاتلتنا وعبثت بنا ، فقد بذل اليابانيون جهداً حثيثاً فى سبيل منعنا من التسلل إلى شعاب حياتهم ومعرفة شىء عن دنياهم الغريبة . فاليابانيون لا يسمحون إطلاقاً للأجانب بأن يتسللوا إلى بيوتهم أو يتعرفوا حياتهم الخاصة ، ومهما تكن العلاقة طيبة فإن الزائر يشعر دائماً بأن هناك حداً لا يستطيع أن يتعداه . وقد تزوج بعض الأجانب بامرأة يابانية وعاش حياة يابانية فى منزل يابانى وكتب كتباً شائقة عن اليابان ، ولكنه مع ذلك يعترف فى النهاية بجهله باليابانيين ، فقد جاء فى آخر كتبه عن اليابان ما نصه : « منذ زمن بعيد قال لى أطيب وأعز أصدقائى من اليابانيين قبيل وفاته ... عند ما تشعر فى خلال السنوات القادمة أنك لم تستطع أن تفهم اليابانيين إطلاقاً ، حينئذ تكون قد ابتدأت تفهم شيئاً منهم » .

واللغة اليابانية تجعل التفاهم عسيراً ، فقد استطعنا خلال خمس سنوات قضيتها فى اليابان مع زوجتى أن نتكلم اللغة اليابانية بقدر ولكن لم نستطع قط أن نقرأها أو نكتبها ؛ هذه الحقيقة تتمثل عند معظم الأجانب . وقد طلب بعض الأجانب من عميد أمريكى لإحدى جامعات طوكيو — وقد كان فى اليابان منذ ثلاثين عاماً — أن يكتب مذكرة له باللغة اليابانية ، فنظر إليه بدهشة ثم قال : لكن ساءه توجيه مثل هذا السؤال « إنى لا أكتب اليابانية .. نحن نتكلمها ولكننا لا نكتبها » ثم تركه واتجه نحو حجرة الدراسة ليحاضر طلبة يابانيين باللغة اليابانية .

ومن بين الصعاب التى تواجهنا أن نجد رجالا من بنى جنسنا قد تملكوا ناصية اللسان اليابانى حقاً ولا يتسرب الشك فى إخلاصهم ، وقد زار أحد الإخصائيين فى كاليفورنيا اليابان فى فترة مضت فسألته عن عدد الأمريكيين الذين صادفهم ممن استطاع أن يستوعب اللغة اليابانية ... وبعد أن أعمل فكره قال إنه يعرف ثلاثة منهم . ومن الطبيعى أن يكون هناك فى الولايات المتحدة أكثر من ثلاثة أفراد يتقنون اللغة اليابانية ، ولكن يبدو أن هذا العدد لاحساب له إذا ما قورن بعدد اليابانيين الذين يتقنون اللغة الإنجليزية .

وقد تساءل أحد الطلبة اليابانيين فى عجب إذا لم تكن اللغة اليابانية تدرس فى المدارس الأمريكية . وقد بدت هذه الفكرة مضحكة للوهلة الأولى ، فكرة تدريس اللغة اليابانية فى المدارس الأمريكية ، ولكن بعد تدقيق النظر يبدو أنها لم تكن كذلك .

ويظهر أن للمعلومات الإنجليزية شأناً كبيراً فى الحياة اليابانية ، فهم يعتصرون من حضارتنا كل ما من شأنه أن يفيدهم . وقد رأينا كثيراً من الكتب الإنجليزية مكدسة فى نواحى غرف الدراسة فى إحدى جامعات الامبراطورية أمثال « الذوق الأدبى لأرنولد بنيت » و « بيجماليون لبرنارد شو » و « دكتور جيكل والمستر هايد لستيفنسون » وقد يستطيع أصغر التلاميذ سناً فى المدارس الابتدائية اليابانية أن يكتب عن حياة وشنجتون أو أديسون أو فورد ، وإنك لترى الكثير من حيطان غرف الدراسة خالية إلا من صورة للرئيس لنكولن .

لم تعد اليابان بعد فى عزلة عن العالم فهى الآن تنظر إلى العالم كله وتحتاج إليه ، ولم يكن لمحاكاة اليابانيين لنا فى البداية أى ضرر ، فقد مدحنا وكان لنا فيما وقع لبعض صغار اليابانيين من سهو تفكهة وتسرية لنا ، فعند ما سارت القطر الحديدية فيها للمرة الأولى وأخذوا يدفعون إلى ركوبها كانوا يتركون أحذيتهم على رصيف القطار لأنهم تعودوا ألا يدخلوا بيتاً قط وأحذيتهم فى أقدامهم . وقد حطموا زجاج النوافذ عند ما أخذوا يطلون برؤوسهم منها

غير منتبهين إلى طبيعة الزجاج الشفافة ، فكان لزاماً إذن أن يُخط عمود أبيض على لوح الزجاج حتى يشعروا بوجود شيء صلب ، كما علقت لوحات كبيرة على وجهات المحلات كتب عليها « هذا زجاج » . وكانوا يراقبون أسلاك التلغراف محاولين رؤية الرسالة وهي تسير خلال السلك ، وقد قال بعضهم إن السلك لابد أن يكون مجوفا ، وقال البعض الآخر إنه لابد أن يكون متحركا ، أما أهل القرى فقد قالوا إنه من عمل الشيطان . وعند ما أدخلت المسرات لأول مرة قيل عنها إنها السبب في انتشار مرض الكوليرا الذي ينتقل من المتكلم إلى السامع . وقد ارتكب اليابانيون أخطاء كثيرة عند ما حاولوا أن يقلدوا آلاتنا . وقد ساد الشعور بأن اليابانيين قد أصبحوا صورة لنا ولكنها صورة شاحبة جداً ، ومع ذلك فقليل من يدرك أن هذه الصورة الفطرية الأولى قد تغيرت إذا نظرنا إلى ما طرأ على الحياة اليابانية الصناعية من تطور .

وقد علَّم صناع القطن في منشستر اليابانيين كيف يغزلون القطن ثم يبيعونه ، وسرعان ما استطاع اليابانيون أن يصنعوا منه أقمشة قطنية ويرسلوها حول نصف العالم ثم يبيعوها بثمن أقل مما تباع به تلك التي صنعت في منشستر ذاتها ... ولكن ليس هذا أسوأ ما في الأمر ، فقد اخترع اليابانيون نولا أوفر إنتاجا بمجهود أقل ، فبينما نرى في مصانع لانكشير فتاة واحدة تباشر ثماني آلات نجد في مصانع اليابان أن فتاة واحدة تباشر ستين آلة . وقد أبت لانكشير أن تصدق ذلك إلا بعد أن غمرت المنسوجات القطنية اليابانية أسواق العالم جميعه بأثمان تتراوح بين الثلث والعشر من أثمان المنسوجات القطنية المصنوعة في لانكشير .. ومن ثم تحول قطب الصناعة القطنية في العالم إلى اليابان حتى أن رجال الصناعة في لانكشير قد انتقلوا إليها ليدرسوا الصناعة القطنية فيها . وفي هذه المرة دفعوا مليون ين في سبيل الحصول على حق استخدام الأنوال اليابانية في مصانع لانكشير .

وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه الإنجليز يستخدمون الأنوال الجديدة أخذ المهندسون اليابانيون يبذلون جهدهم في سبيل تحسين أنوالهم وتصميمها بحيث يجعلونها أعظم كفاية ، ويتمثل مبلغ نجاحهم في الحقيقة العجيبة الآتية ، فقبل أن توقف الحرب الحالية حركة التجارة كانت تشترى اليابان قطنها الخام من الهند ثم تدفع مصروفات شحنه إلى اليابان ثم تصنعه وترسله مصنوعاً إلى الهند وتدفع تكاليف شحنه إليها كما تدفع ضريبة الجمرك ، ومع ذلك كله فقد كانت تبيع إنتاجها منه في الهند بأقل من أثمان تلك المنسوجات القطنية التي كانت تصنع في الهند ذاتها . وفي منافسة اليابان للانكشير حيث مستوى أجور العمال ومعيشتهم عال شيء ، ومنافستها للهند حيث مستوى المعيشة والأجور منخفض حتى عنه في اليابان شيء آخر ، فإن هذا يهدد الصناعة القطنية في جميع أنحاء العالم .

وقد احتلت اليابان منذ زمن بعيد الصدر في صناعة الحرير إذ كانت تنتج أكثر من ٧٠٪ من إنتاج العالم في الحرير ، وليس هذا لملاءمة جو اليابان لصناعته فحسب ، بل لأن اليابانيين أحدثوا من الوسائل وأدخلوا من الآلات الحديثة ما مهد لهم سبيل السبق في هذا المضمار . وقد بحث الغربيون عن وسيلة يستطيعون بها أن ينالوا من اليابان شيئا في هذا السبيل فأنشأوا صناعة « الحرير الصناعي » ، ومن ثم رأت اليابان أن صناعتها الحريرية قد أصبحت مهددة ، ولكن سرعان ما استطاعت أن تنافسهم وأن تصدر من الحرير الصناعي أكثر مما يصدره أي قطر في العالم ، أما تطور صناعة الجوت في اليابان فهو يصور ناحية مدهشة لدى البحث العلمي فيها .

وإنه لتبدو لك فكرة واضحة عن صناعات اليابان إذا ما حلقت بين طوكيو وكوبي فوق العمود الفقري للصناعات اليابانية ، وقد أطلقوا عليها « حلم قاذف القنابل » ، فليست هناك صناعات حربية لأمة من الأمم أوضح هدفاً وأسهل منالا للغارات الجوية مما هي في اليابان ، ففي خلال ثلاث ساعات قد تستطيع قاذفة قنابل سريعة أن تصيب أهم أهدافها ، ولكن من الخطأ أن تعتقد أن سقوط بعض القذائف فوق طوكيو قد تلحق بها أضراراً بعيدة المدى ، فإنك إذا نظرت إليها من عل وأنت في طائرتك علمت لماذا كان الأمر غير ذلك ، فسترى شيئاً أشبه برقعة الشطرنج فيما عدا أن كل مربع يفصله عن المربعات التي تجاوره طرق فسيحة أو قنوات ، فإذا سقطت القذيفة فوق إحدى هذه المربعات امتد منها اللهب جميعاً ولكن تظل المربعات الأخرى المجاورة في مأمن منها . وقد لجأت اليابان إلى هذه الخطة على أثر زلزال عظيم لكي تحد من ضرر الحرائق وتحصرها في نطاق ضيق . وعلى كل فإن طوكيو ليست أفضل أهداف قاذف القنابل ، ففيها حقاً مصانع كثيرة

ولكنها متفرقة ، ولكن هذه الحال تختلف فى ناجويا وأوزاكا وكوبى حيث يتجمع وتتكتل المخازن والمؤن الغذائية والطواحين ومصانع الحديد وأحواض السفن مما لا يترك مجالا للشك فى أن تصيب القذيفة هدفاً حيويا ، وحيث يبدو للملاحظ الجوى أن كل هذه المنشآت الصناعية اليابانية الحديثة هى بنات أفكار الغرب قد انتقلت إلى اليابان واستحالت إلى صورتها الراهنة فى أقل من ثمانين عاماً .

ويشتهر عن اليابانيين أنهم يقلدون كل شىء ولكنهم لا يبتكرون شيئاً ، هذه الصفة الشائعة هى نصف الحقيقة فقط ، فهم يخترعون بالقدر الذى يقلدون به ، ففى المكتب الامبراطورى لمنح رخص الامتياز يشتغل نحو من ٨٠٠ خبير يتسلمون كل عام نحوا من مائة ألف طلب لمنح رخص الامتياز ، وفى كل عام يمنح نحوا من عشرين ألف رخصة امتياز ، وإن مصانع أوربا وأمريكا لترقب باهتمام الاختراعات اليابانية وتقتبس كثيراً منها .

وإنه ليخيل إلينا أن آلاتنا الكاتبة تلك التى تحول ستة وعشرين حرفاً إلى كلمات معجزة من معجزاتنا ، فما ظنك إذن بالآلة الكاتبة اليابانية التى تتجمع فيها مجموعة من الرموز لآلاف الحروف ؟

وكان من بين ما عرض فى أحد معارض الاختراع هذه المخترعات : آلة للصور المتحركة للاستعمال المنزلى ، جهاز للتلفزيون يستخدم فى البيت ، سيارة تستطيع أن تنحرف بسرعة فى شتى الاتجاهات ، آلة تختبر بها البيضة إذا ما كانت طازجة دون أن تفتحها ، مادة للبناء مصنوعة من قشر الأرز المهمل ، آلة متحركة للتصوير تستطيع أن تلتقط ٦٠٫٠٠٠ صورة فى الثانية وهى سريعة بحيث تصور حركة الموجات الصوتية .

وهناك جامعة غريبة ليس غرضها تعليم الفنون وإنما غرضها الرئيسى الابتكار والاختراع . وقد أخذتنى الدهشة عندما دخلت بعض الدورحيث كانت تجرب وتختبر بعض الاختراعات الحديثة ؛ فهنا أحد الباحثين الذين يبحثون فى تركيب المطاط ، وباحث آخر يجرب دهاناً للتلوين لا تكون له قشرة ، وثالث يختبر مادة من الأسمنت لا تتشقق ، ورابع يجرب عضواً آليا يتحرك بنفسه دون أن يمسه أحد ، فقط إذا ما مرره أحد يده خلال الهواء . وقد دخلنا مخزناً يشبه الثلاجة كانت درجة حرارته ٤٠° فرنهيت تحت الصفر فتساءلت عن الفكرة فى ذلك فعرفت أن الغرض من ذلك هو إيجاد جو يشبه شتاء منشوريا تجرب فيه مدى تحمل بعض المواد فى مثل هذا الجو ، وقد دخلنا غرفة أخرى كانت حرارتها عالية تبلغ ١١٠° ودرجة رطوبتها ٨٥ ٪ وهى تمثل المناخ المدارى داخل أربعة جدران ، وإنك ترى أن اليابان قد امتدت إلى المنطقة المدارية . ومن يدرى لعلها تمتد فى أحد الأيام إلى المنطقة الحارة . وعلى كل فيجب علينا أن نستعد عليا لذلك اليوم إذا ما جاء ، ولذلك فقد أنتجنا مواد للبناء، وأطعمة وملابس وأدوية تلائم مثل هذه الجواء ، ثم ذهبنا إلى أحد أقسام الهندسة حيث كانت تمارس بعض التجارب لبناء منازل من الحجر والصلب تتحمل هزات الزلازل وضربات القنابل ، فإننا نعلم أن اليابان معرضة للغزو من الجو ولكن سيذهل العدو حينما يحس بالمقاومة العجيبة لمنازلنا الحديثة وهو فوق كبرى مدننا .

ويبدو لنا أن كل يابانى ينظر باحدى عينيه الآلة التى فى يده وبعينه الأخرى إلى السياسة الدولية؛فقد قال الدكتور « كيقوشيتا » نحن نحب اليابان أولا ثم العلم ثانيا . هذه هى أعظم نواحى اليابان العلمية خطراً ذلك أن يقتصر العلم على نفع اليابان دون العالم ، فالعالم الحقيق هو الذى يصادف انتشار المعرفة الإنسانية هوًى فى نفسه ولذة دون أن يحسب حسابا للحدود السياسية ، ولكن لشد ما يدهشك من العالم اليابانى أنك تراه يعتقد بهذه الأسطورة الخيالية التى تشير بأن الامبراطور هو من سلالة آلهة الشمس ، ولذلك فهو يستمد حقه الإلهى فى حكم الأرض .

وقد أرهقت الحرب قوة الاختراع فى اليابان ، فقد تفادوا النقص فى الحديد بصنع الراديو والفصلات وقبضات أيدى الأبواب بالورق المضغوط ، واستعاضوا عن اللبد بمادة مصنوعة من عشب البحر والأصداف ، وأنتجوا من قشرة السمك جلوداً يستعيضون بها عن النقص فى الجلود ، ولنقص الصوف صنعوا شيئاً عاثله من مادة السوياتين ، ولحاجتهم لإبرالفونوغراف استعاضوا عن الصلب فى صنعها بمادة البامبو ، وصنعوا الدراجات من الورق القوى بدلا من الحديد ؛ وقد أنشأوا سيارات تسير بفحم الحطب بدلا من الجازولين .

والبحث عن اللآلى، هوأعظم أعمال اليابانيين مهارة ، وفى العادة قد توجد فى كل بضعة مئات من ألوف الصدف صدفة واحدة

تحوى لؤلؤة ، وإنه لأيسر أن نبحث عن إبرة فى كومة من القش عنه فى بحثنا عن لؤلؤة فى داخل صدفة ، وإنها لخبرة مسلية أن تزور إحدى مناطق اللآلىء حيث ترى الفتيات تغصن لمسافة عشرين قدما فى قاع البحر ليجلبن الأصداف التى توضع فى قصعة ثم تؤخذ إلى المعمل لفحصها .

وقد كان منزلنا المصنوع من الورق على شاطىء البحر فى هياما منزلا جميلا ولكنه لم يكن مريحاً ، وكان علينا أن نعيش فيه عاما على أقل تقدير تلك الحياة التى يعيشها اليابانيون لنستطيع أن نفهمهم حق الفهم ، ولكننا أحضرنا فى نهاية ذلك العام بعض وسائل الراحة كالأسرّة والمناضد والكراسي والمدافىء . ولتتخيل معى ليلة من ليالى الشتاء الرطبة فى بيت بابه من الورق خال من المواقد اللهم إلا من موقد مملوء بالرماد الذى يعلوه بعض حطم الفحم الملتهب . ولا يمكننا أن نشعر بالدفء إلا إذا اقتربنا من اللهب ؛ فصفير الهواء لا ينقطع من خلال شقوق النافذ ، وفى هذه الحال عكنك أن تتلق النافذة الخشبية الخارجية ، ولكن سرعان مايسود الغرفة بذلك ظلام حالك . ومع ذلك يظل الهواء البارد نافذاً إلى الغرفة من خلال أرضيتها . ولكي تدفأ فعليك إما أن تنام أو تظل فى حركة مستمرة ؛ ولكن الإنسان لا يستطيع أن يظل فى فراشه طويلا ، وعلى ذلك يصبح الرد الطبيعي هو العمل . وقد يكون هنا هو أحد الأسباب التى يُعزى إليها نشاط اليابانيين الدائم ، فخير لليابانى أن يحرث ويزرع فى الحقول اللائى بالطين من أن يسكن فى منزله ، ولكن لسوء الحظ ليس للبيهم حقول يزرعونها . وإن النتيجة الطبيعية لهذه الحياة الصعبة أن العسكري اليابانى أصبح لا يحس فى الميدان ذلك الإرهاق والضيق اللذين يحسهما الجنود الذين تعودوا حياة أرقى فى مستواها .

وفضلا عن ذلك فإن اليابان يعوزها تقدير الحياة البشرية ؛ فنحن نؤمن بأن نعيش لوطننا ولكن اليابانيين يؤمنون بالموت فى سبيل وطنهم ، فهم يتعلمون منذ نعومة أظفارهم بأن الفرد لا قيمة له . ولا يؤمنون بمذهب الفردية بل بمذهب الجماعة ، فاليابانيون يميلون إلى العمل الجمعي وقد برعوا فيه . ولا يحكم اليابان دكتاتور بل يحكمها جماعة من الأفراد ، وامبراطورها يمثل رمزاً مقدساً . وإذا ما علا صيت أحد أفراد الحكومة أو علت منزلته فإنه كثيراً ما يغتال . ويستذكر الطلبة دروسهم جماعة . وهناك مثل يابانى يقول : « إن يابانياً واحداً غبي واثنين غبيان » ، وتتكتل جيوش اليابانيين جماعات ، وهذه أحد الأسباب التى يعزى إليها بطولتهم فى الحروب . وتبدو مهارة الطيار اليابانى عندما يعمل مع سربه ولكنه حينما ينفرد يفقد ميزته كطيار ولكنه قلما ينفرد فى حرب الجو أو فى البحر والبر لأنها جميعاً تتطلب العمل الجمعي .

والانتحار شائع بينهم بكثرة ، لأن الفرد يعتقد أنه لا يستحق وجوده أو يستأهل حياته إذا لم يحتفظ بنفسه كريمة بين أقرانه . وإن من المبالغة أن نذكر أن الجندى اليابانى يرغب فى الموت ، بل إنه يفضل أن يعيش ، ولكنه قد أشرب دمه فلسفة الموت تماماً . ولم يعلّم حكمة البقاء التى تتيح له أن يحارب مرة أخرى فى يوم آخر ، فالجيوش اليابانية لم تدرب على خطط الانسحاب ، لأنه لا يدور بخلدهم أن ينسحبوا . وقد صدرت التعليمات إلى الجنود بأن خيراً لهم أن يموتوا من أن يقعوا أسرى حتى لا تلحق رعاياهم الحطة والذلة إذا ما أسروا ، ولكن أى فخر قد يصيبهم عندما تعود أشلاؤهم إلى الوطن ، حيث تأله فى معبد «ياسوكونى» المقدس الذي يتوجه إليه الإمبراطور بنفسه ، لينحنى أمامه على روح هؤلاء الجنود الشهداء الذين ضحوا فى سبيله .

عمر رشدي

نظرية كونفوشيوس الدينية

للأستاذ أبو بكر هوغانجين الصيني

١ — هل كونفوشيوس نبي ؟

اعتقد الشعب الصيني في ذات كونفوشيوس منذ قدم الزمن اعتقاداً جازماً ما اعتقده اليهود في موسى والمسلمون في نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام وعظموه تعظيما لا يقل عن تعظيم النصارى لذات المسيح والبوذيين لذات بوذا ، فأقاموا له الهياكل والمعابد يتقربون إليه في أعياد ميلاده ووفاته ، ونصبوا له التماثيل والنصب والأخشاب التي كتب عليها اسمه يقدسونه ويعبدونه ، وخصوصاً في الأيام الملوكية . قبل ثلاثين سنة كان الأطفال والتلاميذ الشباب يذهبون إلى المدرسة القديمة الطراز ويركعون له ركعات ويطلبون منه التوفيق والإلهام ، كما فعله المتدينون لإلههم المقدس بديع السموات والأرض ومابينهما . ولكن الواقع لم يكن كونفوشيوس نبياً مرسلا يدعى أنه يوحى إليه بالحق ليبلغه الناس ، ولم يدع ذلك بل أنكر أن يكون نبياً وذا مروءة . قال في الفصل السابع من كتاب الحوار :

« أما الأنبياء الحكماء وذوو المروءة ، فكيف أجترئ على ادعاء رتبتهم ؟ وغاية ما يجوز أن يقال في هي أنني رجل يعمل جهده من غير ملل ، ويعلم غيره من غير تعب . فقال كونغ اسي هوا (أحد تلاميذه) : وهذا هو الذي لا يمكن أن نتعلمه »

غير أن المسلمين ما داموا اعتقدوا أن هناك أنبياء لم يقصص الله علينا أخبارهم ، كما نص القرآن الحكيم ، وما داموا اعتقدوا أن لكل أمة نبياً أو أنبياء يرشدونها إلى سواء السبيل ، وما داموا اعتقدوا أن الأنبياء يزيدون على مائتين وعشرين ألفاً ، فإن كونفوشيوس قد يكون منهم ، لأنه يعرف الإله مدبر الكون ، وإن لم يتصد لتعليمه الناس ، ولأنه يقيم نفسه للحق ينشره بين الناس ليرجعوا إليه في كل معاملاتهم ، ولأنه يبين لهم الآداب الفاضلة ليتخلقوا بها ، والأعمال الفاسدة الرذيلة ليتجنبوها ، فهو مصلح للأمة متدرج من الأفراد والأسر إلى المجتمعات ، وليس كالسياسي يعالج أمراض الأمة الظاهرة من الخارج لا من الأساس ، فهو نبي من الأنبياء ، قد عمل أعمالهم وأدى واجبه كما أدوا ، بقطع النظر عن تعظيم الشعب الصيني له وإجلالهم إياه فوق ما يجب

٢ — هل الكونفوشيوسية دين ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة ، فقال فريق : إن التعاليم الكونفوشيوسية هي دين كسائر الأديان في العالم ، لأنها لا تخلو عن الإرشادات القيمة التي تحض الإنسان على عمل الخير ، وترك الشر ، والتي تدعوه إلى الحياة السعيدة الهنيئة بالتحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، وهي تأمر الناس بالمعروف ، وتنهاهم عن المنكر ، وهي النصيحة عينها . وهذه الأشياء من خصائص الدين وغاياته ، فهي دين بلا شك ، وهذا الفريق هو الذي يريد أن يجعل الكونفوشيوسية ديناً رسمياً للحكومة الصينية والشعب الصيني

يقول الفريق الآخر : إن التعاليم الكونفوشيوسية إنما هي فلسفة عالية وحكم غالية كسائر الفلسفات في الأخلاق والسياسة وليست ديناً ، لأنها لم تبحث عن الإلهيات كوجود الإله وصفاته وأفعاله ، ولا المغيبات كالجنة والنار والثواب والعقاب ، ولا الصلة بين الله والإنسان ولا بينه وبين الموجودات . يقول تس كونغ أحد تلاميذه النوابغ :

« يمكن أن تسمع أحاديث الأستاذ في الفضائل والآداب ، ولا يمكن أن تسمع أحاديثه في النفس الإنسانية والسنة السماوية[1] » . الفصل الخامس من كتاب الحوار : « كان الأستاذ قلما يتحدث عن النفعة والقضاء والقدر والمروءة » . التاسع من الكتاب .

« كان الأستاذ لا يتحدث عن العجائب والقوى والاضطرابات والآلهة » . السابع منه

(١) السنة السماوية هي سنة الله .

يقول بعض الشراح : إن هذه الأشياء غامضة جد الغموض ، فسكت عنها الأستاذ العظيم كونفوشيوس . ويقول البعض : كان الأستاذ لا يحدث عنها إلا للنوابغ من تلاميذه ، وقد سمع تلميذه هذا ، وذاق حلاوة الأحاديث في هذه الأشياء ، لكنه يأسف لتأخر سمعه وقلة التحدث له وعدم التحدث للتلاميذ كلهم .

فما دام كونفوشيوس لم يتحدث عن هذه الأشياء التى هى من مهمات الدين وميزاته ، أو قلما يتحدث عنها ، فكانت تعاليمه ليست بدين ، بل هي فلسفة بلا شك ، وهو فيلسوف كأفلاطون وكانت وغيرهما .

وعلى كل حال ، فإن التعاليم الكونفوشيوسية مزيج من الإثنين لاهي بالمبادئ الدينية المحضة ، ولا الآراء الفلسفية البحتة ، وشأنها شأن الفلسفات القديمة التى تبتدئ بالخرافات والأساطير ، ثم تمتزج بالحكم الدينية

٣ — دين الصين القديم

إذا كانت التعاليم الكونفوشيوسية مزيجاً من الدين والفلسفة فلابد أن نعرف حقيقة الدين الصيني القديم الذى قبل كونفوشيوس حتى نتبين هل نظريته الدينية كلها نظريات قديمة أو عقائد قديمة أم للفيلسوف كونفوشيوس رأى خاص أو نظرية خاصة غير العقائد التى اعتنقها السواد الأعظم من الشعب الصينى فى تلك الأزمان الغابرة ؟ .

يعتقد قدماء الصينيين أن السماء جوهر حى عليم قادر مدبر الكون نافذ الإرادة فى النفوس وسائر الكائنات ، واعتقدوا القضاء والقدر وقالوا إن العاصفة والطوفان والقحط والزلزال والمجاعة كلها آيات السماء تنذر بها الملوك إذا جاروا على الرعية أوقصروا فى حقوقهم وعبادة السماء خاصة للملوك ولا تتعدى غيرهم .

يعتقد قدماء الصينيين أن للكائنات السماوية والأرضية آلهة أو ملائكة أو أرواحا تدبرها وتصرفها كيفما تشاء ، فالشمس والقمر والسحاب والمطر والجبال والأنهار وما شاكلها من الكائنات يكون لكل واحد منها إله أو ملك أو روح يعبده الناس ، ولكن عبادة آلهة الأرض والجبال والأنهار مخصوصة للأمراء وحدهم .

وكذلك يعتقدون أن فى المنزل آلهة للغرف وأرواحا للأموات ، ويزعمون أن روح الإنسان تبقى فى الدنيا بعد موته ، وتشتاق إلى العودة إلى أسرته والعيش مع أفرادها فى الغيب ، فهم يعبدونها ويقدسونها ويقدمون إليها القرابين ، وهى عبارة عن أنواع الأكل والشرب المشتهيين على مائدة منسقة ، وهذه العبادة يشترك فيها الشعب والملك والأمراء لا فرق بينهم إلا بالكثرة والقلة .

والصينيون القدماء لا يعتقدون الجنة والنار ، وإنما يعتقدون الجزاء فى الدنيا إن خيراً فخيرا وإن شراً فشر . وقد يتعدى جزاء شخص إلى أبنائه أو أحفاده والكل يرجع إلى السعادة والشقاوة فى الحياة الدنيا

٤ — نظرية كونفوشيوس فى الآلهة والأرواح :

قبل أن نتكلم عن نظريته فى الآلهة والأرواح يجب أن نبين للقارئ أن المصدر والمرجع فيما نقول منحصر فى كتاب الحوار الذى ألفه تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه ، لأن الكتب التى صححها الفيلسوف كونفوشيوس ، ولخصها ورتبها بنفسه ، وإن كانت فيها نظريات فلسفية قيمة فى مبدأ الكون ومصيره والإله وأفعاله ، كتب قديمة لايعتمد عليها فيما إذا بحث عن آرائه الخاصة وأفكاره الشخصية ، وأما كتاب الحوار ، فإنه مشتمل على أقواله وأفعاله واعتقاداته ، فإذا بحث عن نظرياته الخاصة يجب الاعتماد عليه

يعترف كونفوشيوس ببقاء الأرواح بعد خروجها من الأجساد ووجوب تقديم القرابين إليها ، فلذلك كان « إذا دخل الهيكل العظيم سأل عن كل شيء » الفصل العاشر من كتاب الحوار

« كلما دخل الأستاذ الهيكل العظيم سأل عن كل شيء ، قيل : من ذا الذى يزعم أن ولد الرجل المنسوب إلى بلدة تساو يعلم الآداب ؟ كلما دخل الهيكل العظيم سأل عن كل شيء . فلما سمع الأستاذ هذا التهكم قال : هذا من الآداب أيضاً » . الثالث من الكتاب .

« كان الأستاذ يقدم القرابين إلى أرواح آبائه وأجداده كأنهم حاضرون ، ويقدم القرابين إلى الآلهة كذلك كأنهم حاضرون . قال الأستاذ : إذا قدم القربان أحد غيرى نائباً عنى فكأنه لم يقدم قط » . الثالث من الكتاب

وكان يصوم قبل تقديم القربان

« وكان إذا صام لبس ثياباً من الكتان نظيفة بهية وغير طعامه ومجلسه فى الغرفة » . العاشر منه

« وكان مما يحتاط فيه الأستاذ الصيام والحرب والمرض » . السابع منه .

(البقية فى العدد القادم) **أبو بكر هوغاتجين الصينى**

الشــــعلة المنقذة

لمكسيم جوركي

للأستاذ محمد خليفة التونسي

[إلى الأبطال الذين يضحون بأنفسهم فى الوقت المناسب ليصونوا قومهم من الانهيار : أهدى هذه القصة آية تقدير وإعجاب] (م . خ . ت)

منذ عهد سحيق كانت إحدى القبائل الرحالة تضرب خيامها فى بقعة مجهولة تحدق بها غابات ألفاف ، لكنها تنحسر عن هذه البقعة فى جهة من جهاتها ، فتمتد أمامها فى تلك الثغرة سهول فسيحة .

كان أفراد تلك القبيلة يمتازون بالقوة والبسالة ، كما يمتازون إلى جانب ذلك بالقناعة ، فأقاموا ما أقاموا فى تلك البقعة وهم ينعمون ببسطة العيش ورغده . وذات يوم هاجمتهم قبائل أخر أقوى منهم بطشاً وأشد عتياً ، فأجلتهم عن منازلهم إلى غابة هى أكثف الغابات ، وآسنها ماء ، وأحلكها ظلاماً . فقد كانت فروع الأشجار فى تلك الغابة التى نزحوا إليها قد مرت عليها العصور تلو العصور وهى تمتد وتتشابك حتى حجبت ما بين الأرض والسماء ، حتى أن الشمس كانت إذا طلعت عليها لم تنفذ منها إليها إلا أشعة ضئيلة ، وكانت هذه الأشعة إذا هبطت على المستنقعات نفثت أبخرة قاتمة كأنها السموم .

تتابعت النكبات على القبيلة ، فكان أفرادها يتساقطون تحت أثقالها هالكا إثر هالك ، ودب الملل إلى نفوس النساء والولدان ، وران الألم على قلوبهم فضجوا بالشكوى والبكاء مما هم فيه ، وتنادوا إلى الآباء والأزواج أن يخرجوهم من هذه الغابة المنكودة التى تورطوا فيها مؤثرين الموت خارج الغابة على الموت انتظاراً فيها

كانت عزائم الرجال منحلة ، وقلوبهم قد أشربت اليأس بما تتابع عليها من الأرزاء ، ففقدوا كل أمل فى النجاة من مصيرهم المشئوم . ولقد فكروا ثم لم يقعوا على وسيلة للنجاة ، وكانت نهاية الإغراق فى التفكير أن وجدوا أمامهم منفذين عقباهما الفناء المحتوم ، فإما أن يعودوا إلى منازلهم الأولى التى أجلاهم عنها أعداؤهم فيكروا عليهم ويقاتلوهم ليخرجوهم منها كما أخرجوهم ، ولكنهم رأوا أنهم لا قبل لهم بأعدائهم ، فلا جدوى من العودة ، وإما أن يخرجوا من الغابة إلى مكان آخر ، ولكنهم رأوها متشابكة حصينة لا سبيل إلى النفاذ منها ، فلا جدوى من محاولة الخروج

لم يجدوا بداً من البقاء حيث هم ، فأقاموا فى شر حال ، وكانوا يتهاوون تحت الآلام كما تتهاوى الأصنام فى جمود أخرس كئيب ، وكانوا إذا جن الليل أوقدوا النيران لتدخل إلى قلوبهم شيئاً من الأنس والسكينة ، فلا تزيدهم إلا وحشة واكتئاباً ، فتثقل عليهم الذكريات القديمة يوم كانوا ينعمون بالطلاقة والعيش الرغيد فى جنبات السهول الفسيحة المترامية الآفاق ، وفى ظلمات الليل كانت الأعاصير تعصف بأصواتها الرهيبة المنكرة ، فتملأ جوانحهم هولا ورعباً .

إنهم لم يفروا أمام أعدائهم لنقص فى شجاعتهم ولا لجهل منهم بأساليب القتال ، بل إنهم آثروا الانسحاب حتى لا يستأصلهم الأعداء استئصالا ، فيفنى بفنائهم تراث أسلافهم لو أنهم استمروا على الحرب . لقد سحقتهم النكبات سحقاً ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يسلوا ما نعموا به من رغد وحرية ، فأرقتهم الهموم الثقال ؛ وكانوا يقطعون الليالى بطيئة وهم ساهرون مفكرون فيما آل إليه حالهم من تعاسة وعذاب ، وكانت الغابات من حولهم تتجاوب بالعزيف والعويل ، وأشباحهم تتراقص حول النيران ، وتتصاعد مع الأدخنة الملتفة كأنها أرواح شريرة ، فتنخب فى عزائمهم وتوهن من شجاعتهم ، فتنطلق ألسنتهم بالسب والتجديف دون حساب . وفى نوبة من النوبات التى يطبق فيها اليأس على القلوب فيأخذ بمجامعها تشاور أفراد القبيلة ، ثم قرروا أن يرجعوا إلى أعدائهم الذين أجلوهم عن منازلهم ، ليستسلموا إليهم متنازلين عن حظهم من الحرية والكرامة ، مفضلين الموت بأيدى أولئك الأعداء القساة عن حياة الأسر فى الغابة .

وإذ ذاك برز من بين الصفوف شاب باسل وسيم كان القدر قد هيأه لهذه الساعة الحرجة كى ينقذ القبيلة من مصيرها التعس كان اسم ذلك الشاب « دنكان » ، وكانت تلوح على وجهه علائم البسالة والعزة والصرامة ! نهد ذلك الشاب واقفاً أمامهم وخطب فيهم قائلا :

« أيها الرفاق ! إن مشكلتنا لعسيرة ، ولن يحلها التفكير العقيم ، ولن تفتح لنا الثرثرة سبيل النجاة ، ولن تجدى الشكوى والدموع شيئاً لرفع ما نحن فيه من البلاء . حذار أن تسرفوا فى التفكير الأجوف ، والثرثرة الفارغة ، فتذهب قوتكم ، ويضيع وقتكم سدى . لنستجمع شجاعتنا وقوتنا ، ولنتهيأ للضرب فى غياهب هذه الغابة حتى نجتازها إلى نهايتها . إنها لا بد منتهية ، لأن لكل شىء فى الكون نهاية . أيها الرفاق الأمجاد ! عليكم بالصبر والإخلاص والشجاعة ، ولا سيما فى المراحل الأولى ! ولتكن عزائمكم راسخة ، وخطاكم ثابتة جبارة !

كان أفراد الغابة مقبلين بفتور عندما وقف « دنكان » ليلقى فيهم خطابه القوى . ثم رأوا فى وجهه وفى نبرات صوته آيات الثبات والإخلاص والبسالة ، فسرى فيهم الإخلاص والحماسة ، فآمنوا أنه أفضلهم وأقدرهم على قيادة القبيلة فى طريق الخلاص ، حتى أنه لم يكد يفرغ من خطابه حتى صاحوا : امض بنا راشداً فنحن على آثارك مقتدون !

حينئذ سار « دنكان » مؤمناً بالفلاح والظفر والخلاص ، واتخذ أفراد القبيلة طريقهم من خلفه وفى قلوبهم من الإيمان مثل ما فى قلبه . لم تكن الطريق بالممهدة ولا المأمونة ، بل كانت عقباتها كثيرة ، وأوحالها عميقة ، يمكن أن تبتلع فى كل خطوة بضعة أشخاص ، وكانت تعترضها الأشجار الكثيفة التى تسبح فوقها الحيات صاعدة هابطة ، وهى ترسل عليهم من فوق رءوسهم فحيحها الرهيب .

كانت جلودهم تنضح بالعرق ، وجروحهم تسيل بالدماء ، وأعصابهم وعضلاتهم تفيض بالكلال والإعياء ، ومع ذلك استطاعوا أن يقطعوا مسافة طويلة دون ضجر ولا استياء

ولكن الأيام تتابعت فازداد بتتابعها وقع المتاعب على النفوس والأجسام ، وأحس أفراد القبيلة بخور فى عزائمهم وتهافت فى قواهم ، فتناسوا ما عاهدوا « دنكان » عليه ، وأقبلوا إليه يزفون وقد ملئت صدورهم ضغينة وحقداً ، وصاحوا فى وجهه : « أيها الشاب الطائش ! لقد لنتهى بنا حمقك إلى الخراب ، فليتنا ما سمعناك وما أطعناك ! »

لكن « دنكان » رغم سخطهم عليه ولومهم إياه وضيقهم به لم يهن ولم يفتر ، بل بقى كما كان ، عامر القلب بالأمل والإيمان ، وسار يقود الصفوف الثائرة بعزيمة وطيدة وخطاً راسخة .

ثم أقبلت أمسية ! كانت الغابة فى تلك الأمسية رهيبة قاسية ، فقد تعالى فى جنباتها هزيم الرعد ، وأطبقت عليها الظلمات الحالكة ، وقد تراكم بعضها فوق بعض كأنما احتشدت فيها الليالى جميعاً بظلامها منذ كان العالم . كان القوم التعساء فى تلك الأمسية يسيرون فى سكون كئيب ، فيتعثرون حيناً ، ويتصادمون حيناً ، وقلما كانوا يستقيمون ، وكان الخوف قد أزاغ قلوبهم ، وجمد الدماء فى عروقهم ، وخيل إليهم أن فروع الأشجار المعترضة فى طريقهم إنما هى أيد عارية تمتد إليهم فى الظلام لتختطفهم عن أيمانهم وعن شمائلهم .

وضاقوا أخيراً بما حاق بهم من كلال ولغوب ، فأقبلوا على « دنكان » يوسعونه سباً وشتماً حتى لا يعترفوا بالضعف على أنفسهم وقالوا له : « أيها الشاب الأحمق ! لقد خدعت نفسك وخدعتنا ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، وما أنت بالزعيم الذى يصلح لقيادتنا والإمرة علينا »

ثم وقفوا حيث انتهوا وقد طفحت قلوبهم بالحقد والموجدة على « دنكان » ، وكانت الظلال تتراقص فى الغابة حول القوم ، والأشجار تردد أناشيد الفوز والشماتة ، بينما انصرف القوم لمحاكمة « دنكان » على ما غرر بهم ، وكبدهم من مشقات ، ثم أفضوا إليه بحكمهم قائلين : « إنك لنادر أثيم ! وقد ثبت لنا أنك امرأ سوء بما أوردتنا من موارد التهلكة ، فجزاؤك أن تموت ! »

وأمنت أصداء الغابة وقصف الرعد وحفيف الأشجار على حكم القوم قائلة : « جزاؤك أن تموت! » فى تلك الآونة الرهيبة الحرجة وقف « دنكان » أمام القوم فى شجاعة واطمئنان ، وكشف عن صدره ، وصاح فيهم قائلا : « يا رفقائى : لقد طلبتم إلىّ أن أكون دليلكم فكنته ، وإن لدى من القوة والجرأة ما يهيئنى لقيادتكم ، ولقد أردتم منى أن أسير أمامكم فسرت ، وكنت لكم مرشداً وعليكم حفيظاً ، ثم سرتم ورائى كما تسير قطعان الغنم وراء دليلها دون أن تكون لديكم مسكة من صبر وجلد ... »

ولم يتركوه ليكمل حديثه إليهم ، بل صاحوا فى وجهه

خانقين : « لا بد أن تموت ! لا بد أن تموت ! »

كان « دنكان » ينتظر من قبيلته أن يوفوا بمهدم الذى عاهدوه ، وأن يعرفوا له فضله ونبل مقصده ، وما كان له أن ينتظر منهم هذا الجزاء السيئ الذى يدل على منتهى الكفر والكنود . لقد محضهم حبه ونصيحته ، ومن أجلهم غامر بحياته ، وضحى براحته وقوته ، ثم ها هو ذا يرى نفسه فيهم وحيداً مخذولا منموماً وهم به محدقون يطالبون بدمه دون أمل فى عدل ، ولا طمع فى رحمة . وهاج « دنكان » ولكنه سرعان ما سكن وأناب ، إذ كان ما يزال حفيظاً على حبهم حريصاً على سعادتهم ، رغم أنهم يهمون بقتله ، فتحرك حبه وإباؤه ، وبرقت عيناه بالجرأة والثبات حتى لقد ظنوا بريق عينيه آية جنونه ، فأقبلوا عليه فى قسوة وضراوة ليشدوا وثاقه ، ولاح واضحاً « لدنكان » ما يكنون له من ضغينة وبغض رغم ما يذخر به قلبه من الحب والإخلاص لهم فتهيأت له فكرة أزمع على إنفاذها

فى تلك الآونة طفقت جنبات الغابة المترامية الحالكة تردد أناشيد الموت ، وأخذت العواصف تزأر والرعود تجلجل والأمطار تنهمر فى أصوات هائلة منكرة ، غير أن « دنكان » صاح صيحة مروعة غطت على جميع الأصوات فى الغابة قائلا لقومه : « لقد عرفت الآن واجبى نحوكم ، وسأعمل حالا على إنفاذ رغباتكم ، فكونوا راضين » !

وأقبل بكلتا يديه على صدره فمزقه تمزيقاً ، ثم انتزع قلبه ، وحمله بيده فوق رأسه ، ودهش قومه حين رأوا الدماء المتفجرة من قلبه قد حالت أنواراً متوهجة كأنها الشمس ، فبهرت كل ما تضم الغابة ، حتى لقد أصيب كل ما فيها بالصمت والسكينة . وخر الرجال جثياً كما تخر الصخور ، فصاح «دنكان» فيهم صيحة أخرى قائلا : « أيها الرفاق ! سأمضى أمامكم ، فانطلقوا من خلفى صابرين ، وأشفقوا على كما كنت عليكم شفيقاً ! »

وانطلق « دنكان » أمام القوم ، فساروا وراءه فى صمت وذهول ، وكان ما يزال قابضاً على قلبه الذى اندلعت منه الأنوار فهتكت حجب الظلام وأنارت الطريق للسارين من خلفه . كانت الغابة ما تزال يتردد فيها زئير العواصف وهزيم الرعود وخرير الأمطار ، لكن وقع أقدام السارين كان يغطى على كل أصوات الغابة . لقد كان القوم منطلقين إلى الأمام ، وقد سحرتهم الأنوار الساطعة من ذلك القلب المشتعل . وكانوا يتساقطون موتى كما تتساقط الأوراق الجافة دون تذمر ولا عويل .

وما زال « دنكان » منطلقاً أمام القوم والأنوار تتفجر من قلبه الذى صار شعلة حتى بلغوا نهاية الغابة ! . —

وهناك ... هناك انفتح أمامهم منفذ فسيح ، فنفذ إليهم النور الباهر والهواء الطلق ، بعد أن لبثوا ما لبثوا غرقى فى المطر المنهمر والظلام الكثيف . وأداروا عيونهم عندئذ إلى الوراء ، فرأوا الغابة يطبق عليها الظلام ، ويجلجل فيها الرعد ويلمع البرق ، ثم التفتوا أمامهم حيث اتجهوا ، فرأوا أمامهم الشمس تسكب أشعتها على سهول فسيحة معبدة قد وطئت لهم ، تتخللها الأنهار التى تترقرق فيها أمواهها الفضية الصافية .

كانت الشمس عندئذ توشك أن تغيب ، وعند ما انحدرت أرسلت أشعتها الصفر على المياه المترقرقة ، فلاحت كأنها الدماء الدافقة من الجرح المنفتح فى صدر « دنكان » الجسور . وعندئذ رفع « دنكان » رأسه فى إباء ، وأجال نظره فى السهول الممتدة أمامه ، وقد تملكته نشوة غبطة ورضا وخيلاء . وخر فى تلك اللحظة صريعاً على الأرض ، وقبل أن يطلق نفسه الأخير هتف قائلا : « ما أشهى الموت فيك يا أرض الحرية والكرامة ! »

وكأنما روحه القوية حلت فى الغابة ، فارتجفت حينئذ أشجارها وسمع لها أنين وعويل

وانتشى القوم غبطة بالخلاص فى نهاية الرحلة ، حتى لقد نسوا « دنكان » وفضله عليهم ، فلم يسؤهم موته ، ولم يأبهوا حتى بقلبه الذى كان فى تلك اللحظة يشرق عليهم ويباركهم وهو مطروح بجانب جثته الساكنة الخرساء ، لولا أن واحداً منهم دلف إليه فى خوف وحذر ، وأرسل عينه نحو ذلك القلب المشتعل ، وما قارب يمسه بإصبعه حتى انفجرت تلك الشعلة ، ثم تلاشت أنوارها فى الفضاء ....

لقد أدت الشعلة واجبها ، ثم صعدت لتستريح فى السماء !

محمد خليفة التونسى

٤ – نظـــرات
في دائرة المعارف الاسلامية
الترجمة العربية

للأستاذ كوركيس عواد

وجاء في ٣ : ٥٣٨ ا قوله : « الخترانية نسبة إلى الطسّوج الذي كان موجوداً بين برس وبابل وحلة » . قلنا : لا يعرف طسّوجٌ بهذا الإسم . وإنما ذُكرت « الخُطَرْنِيَّة » وقد قال فيها ياقوت (معجم البلدان ٢ : ٤٥٣) إنها ناحية من نواحي بابل العراق .

وفي ٣ : ٥٥٥ ا ١٥ كرنيكا . وكان يحسن أن يقال فيها : « القَيْرُوَان » فهو الإسم العربي لتلك البقعة .

وفي ٣ : ٦٨٣ ا ٨ ورد قوله : « وقد وُجد في قيونلك نقش بارز » . قلنا : الصواب « قوينجق » وهو تلٌّ عظيم مرتفع في شرقيّ مدينة الموصل ، في بقعة نينوى . بدأ علماء الآثار ينقّبون فيه منذ عهد بعيد ، أي منذ مائة سنة (١٨٤٢ م) وظلوا يعملون فيه سنين عديدة كانت خاتمتها سنة ١٩٣١ .

ومما قرأناه في ٣ : ٦٨٣ ب ١٧ قوله : « ومن الواضح أن هذا الخور هو عين أغما ربتا . وهي كلة آرامية معناها البطيحة الكبرى » . ولو قال : « الأجمة الكبرى » لطابقت الترجمة اللفظة الإرَمِيَّة التي ذكرها .

وورد في ٣ : ٦٨٦ ا ٢١ — ٣ قوله : « واسط وموقعها الآن كوت الحيّ ؟ » هكذا بوضع إشارة الاستفهام . وكان يحسن التعليق على هذه العبارة البعيدة عن الصحة .

وفي ٣ : ٦٨٣ ا ٢٥ غفج . صوابها : عفج (بالعين المهملة) .

وفي ٣ : ٦٨٦ ا ٣٦ ؛ ٣ : ٦٨٦ ب ١ و ٢ ؛ ٣ : ١٨٩ ا ٥ و ١٢ و ٢٢ وَرَدَ إسم « ناحية لمون » و « بطائح لمون » . والصواب في كليهما ، على ما أفادني الأستاذ المحقّق يعقوب سركيس « لموم » بميم في الآخر . وهذا التصحيف من كاتب المقال الأصلي لا من المترجم .

وفي ٣ : ٦٨٨ ب ١١ و ٢٣ عمارة . والأحسن أن تكتب العمارة (بزيادة أل التعريف) . وهي مدينة عراقية مشهورة في وقتنا .

وكذلك جاء في ٣ : ٦٩١ ا ١٠ كوت العمرة ، وصوابها : كُوت العمارة .

ونعلّق على ما وَرَدَ في الحاشية ٢ من ٤ : ٣ ا إنه لم يتحقق أن لفظة بغداد إرَمِيَّة الأصل ، فالمسألة ما زالت موضوع بحث بين العلماء .

وفي ٤ : ٤ ب ٦ الجرّ . صوابها : الخرّ (بالخاء المعجمة) .

وفي ٤ : ٦ ا ١٨ محلة المخرّم . قلنا : ضَبَطَها ياقوت الحموي (معجم البلدان ٤ : ٤٤١) بكسر الراء وتشديدها ، أي المخرِّم .

ووردت العبارة التالية في ٤ : ٢٠ ب ٦ « ويخترقها (يخترق بغدادَ) دجلةُ ، كما كانت في السابق ، فيشطرها شطرين ، يسمى الأيمن منها بالرصافة ويدعى الثاني بالكرخ » . قلنا : الصواب بعكس ذلك ، فإن الأيمن (الجانب الغربي) هو الكرخ والأيسر (الشرقيّ) هو الرصافة .

وفي ٤ : ٢١ ا ١٠ قوله : « وبعض غرف من قصر المأمون (ببغداد) في القلعة الدفعية » . قلنا : كان يحسن القول إن نسبة الغرف إلى قصر المأمون من أوهام العامة ، وإلا فإنه لم يثبت حتى الآن في التاريخ ، صحة نسبة تلك البناية إلى مشيِّد معلوم .

وفي ٤ : ٢٥٠ ا ٢٥ وادى الزرم . صوابه : وادي الرزم (بتقديم الراء على الزاي) .

وفي ٤ : ٢٧٥ ا ١ — ٢ جرذاقيل وزوزانه . صوابهما : جُرْذَقِيل والزَّوْزَان .

وفي ٤ : ٢٨٠ ا ٥ و ٦ و ٢٧ بيث وأزيك . صوابها : بيث وازيق (بالقاف) وهو ما يطابق التسمية الإرمِيَّة لهذا الموقع .

وفي ٤ : ٢٨٠ ا ١١ طهران . صوابها : الطيرهان . وشتان ما بين الموطنين . فأولها مدينة في إيران ، والثاني بلدة كانت على دجلة بالعراق قرب تكريت ، وهي اليوم مندرسة .

ثالثاً : الكتب والمراجع

كان ابتداء المستشرقين بتأليف دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩١٣ ، وابتداء اللجنة بترجمتها إلى العربية سنة ١٩٣٣ ،

أى بعد ذلك بعشرين سنة . ومعنى هذا أن طائفة حسنة من المصنفات القديمة قد تمّ نشرها أو أعيد طبعها خلال تلك المدة . فكان حرياً باللجنة أن تشير فى تعليقاتها إلى ما طبع منها عند التعرض لها فى المتن ، ليكون القارئ على علم وثيق بما ظهر منها ، وليكون عمل المترجم جزءا مقيماً لعمل المؤلف ، وهو غاية ما يبتغى فى هذا الميدان .

وسنذكر فيما يلى بعض ما وقفنا عليه عرضاً ، مما قد يكون فى إضافته أو تعليقه فائدة ، فنقول :

فى ١ : ١١٧ ا ١٠ يضاف إلى المراجع المذكورة بعد ترجمة أبان بن عبد الحميد : كتاب الأوراق للصولى ١ : ١ — ٥٢

كما أن بعض مؤلفات ابن أبى الدنيا ، المذكورة فى ١ : ٧٢ — ٧٣ قد نشرت ، نذكر منها : كتاب مَن عاش بعد الموت (القاهرة ١٣٥٢ﻫ) وكتاب الشكر (القاهرة ١٣٤٩ﻫ) .

وفى ترجمة ابن طيفور ١ : ٨١ ب ٥ تضاف المراجع التالية :

١ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (٤ : ٢١١ — ٢١٢) .

٢ — معجم الأدباء لياقوت الحموى (١ : ١٥٢ — ١٥٧ مرجليوث) .

وفى ١ : ١٩٥ ا ٦ كتاب روضة الجنات . صوابه : روضات .

وفى ١ : ١١٩ ا ٢١ — ٢٦ ليت المترجم قال إن كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى طبع فى دمشق سنة ١٣٤٥ ﻫ .

وفى ١ : ١١٩ ب ١٤ كتاب منجد القريين ومرشد الطالبين وصوابه . منجد المقرئين الخ . وكان مفيداً أن يذكر بأنه طبع فى القاهرة سنة ١٣٥٠ ﻫ .

ومما كان يجدر ذكره فى ١ : ١٢٠ ا ١٠ أن كتاب ابن جزلة الطبيب ، الموسوم بـ « تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان » قد طبع فى دمشق سنة ١٣٣٣ ﻫ ، بعد أن أضحت طبعته القديمة فى ستراسبورج سنة ١٥٣٢ م أعزّ من بيض الأنوق .

وفى ١ : ١٢١ ا ١٢ ذكر لابن جزلة كتاب « منهج البيان فيما يستعمله الإنسان » . والمعروف أنه « منهاج البيان الخ » وهو لم يطبع . ونسخه الخطّية كثيرة فى خزائن الشرق والغرب ، وكلّها مجمعة على العنوان الذى ذكرناه .

وفى ١ : ١٠٣ ا ١ — ٢ كان من المفيد أن يذكر ما طبع من مؤلفات ابن جنى : كالخصائص (القاهرة ١٩١٤) والتصريف الملوكى (بون ١٨٨٥ والقاهرة ١٣٣١ ﻫ) والمبهج فى تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة (دمشق ١٣٤٨ ﻫ) والمقتضب (ليبسك ١٩٠٤) .

وورد فى ١ : ١٣٢ ب ٣ — ٤ اسم كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلانى . وكان ضرورياً للغاية أن يقال فى الحاشية إنه طبع فى أربعة مجلدات (حيدر آباد ١٣٤٨ — ١٣٥٠ ﻫ) .

ومثل ذلك ورود اسم كتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » للسان الدين ابن الخطيب ، فى السطرين الأخيرين من ١ : ١٥١ ب ، فقد كان مفيداً أن يقال إنه طبع فى القاهرة سنة ١٣٤٧ ﻫ .

وفى ١ : ١٥٩ ب ١٦ كان من الواجب النصّ على أن كتاب « الجمهرة » لابن دُرَيد قد طبع فى أربعة مجلدات كبيرة (حيدر آباد ١٣٤٤ — ١٣٥١ ﻫ) .

وفى ١ : ١٦٤ ب ٦ يضاف إلى المراجع عن « ابن ديصان » :

١ — تاريخ كلدو وآثور لأدّى شير (٢ : ٢٠ — ٢٢) .

٢ — برديصان والبرديصانية ليوسف غنيمة (المشرق ١٨ (١٩٢٠) ص ٩٧٧ — ٩٩٢) .

وفى ١ : ٢٢٨ ا ٢٠ وردت العبارة التالية : « ولهذا الكتاب (كتاب القصص المضحكة) ترجمة عربية لم تصل إلينا عنوانها كتاب دفع الهم » . قلنا : هذه القصص وصلت إلينا ، وقد نشرها الأب لويس شيخو اليسوعى بعنوان « الأحاديث المطربة لابن العبرى» فى مجلة المشرق « ٢٠ (١٩٢٢) ص ٧٠٩ — ٧١٧ و ٧٦٧ — ٧٧٩ » ، ثم على حدة ضمن مجموعة أربع رسائل لقدماء فلاسفة اليونان ولابن العبرى « (بيروت ١٩٢٠ — ١٩٢٣ ؛ ص ٣٩ — ٦٠) .

ومما وَرَدَ فى ١ : ٢٦١ ب ٣ — ٤ قوله : « وهو (كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة) فى عشرة أجزاء ، نشر الأجزاء الأربعة الأولى منه بروكلمان » . وكان جديراً باللجنة أن تعلق فى الحاشية أن هذا الكتاب الجليل قد عُنيت دار الكتب المصرية بنشره كاملا سنة ١٩٢٥ — ١٩٣٠ فى أربعة مجلدات .

وفى ١ : ٢١١ ب ٨ — ١١ ذكر « كتاب الشراب » لابن قتيبة والأصح أن يكتب عنوانه « كتاب الأشربة » على ما هو مشهور معروف (راجع : العقد الفريد لابن عبد ربه ٤ : ٣٣٠ طبعة الأزهرية، وكشف الظنون ٥ : ٤٣ لندن أو ٢ : ٢٦٢ استانبول) وكان يحسن القول فى الحاشية ، إن هذا الكتاب لم يظهر جميعه فى المجلد الثانى من المقتبس ، لأننا قابلنا ما نشر منه على نسخة خطية عندنا ، فوجدناه يبلغ نحواً من ثلثى الكتاب . وقد لاحظنا أن المنشور فى المقتبس ظهر فى أربعة أقسام ذكرت الدائرة الأول والثانى والرابع منها وأغفلت ثالثها المنشور فى ص ٤٣٠ — ٤٣٦ من المجلد المذكور .

وفى السطرين الأخيرين من ١ : ٢٦٠ ب يضاف فى الحاشية أن كتاب « المسائل والأجوبة » لابن قتيبة نشرته مكتبة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .

وفى ١ : ٢٧١ ب يبدو لنا أنه سقط سطر بين السطرين ١٧ و ١٨ قوامه ما يلى : « عيون الأنباء ١ : ١٧٥ — ١٨٣ (٣) القفطى » .

وفى ١ : ٢٧٧ ب ١٩ — ٢٢ وجدنا العبارة التالية : « وألف (مسكويه) كتاباً فى التاريخ عنوانه تجارب الأمم ، نشرة كيتانى L. Caetani بتمامه فى مجموعة جب التذكارية . ج ٧ » . قلنا : لنا على هذه العبارة ملاحظتان . الأولى : إنه كان يحسن القول فى الحاشية ، إن ما نشره كتانى لم يكن سوى قسم من هذا التاريخ ، أى أنه نشر (بالفتغراف) الجزء الأول والخامس والسادس . أما سائر الأجزاء فلم يتعرض لها . والملاحظة الثانية ، هى أنه كان مفيداً جداً أن ينوه بأن المستشرق آمدروز H. F. Amedroz قد نشر منه فى القاهرة الجزءين الخامس والسادس مع « الذيل » على تجارب الأمم للوزير أبى شجاع . وأن مرجليوث D. S. Margoliouth نقل هذه الأقسام إلى الإنجليزية ، فصار قوام المتن والترجمة والفهارس سبعة مجلدات (القاهرة — اكسفورد سنة ١٩١٤ — ١٩٢١) .

وفى ١ : ٢٨٠ ا ١١ نقول إن كتاب « فصول التماثيل فى تباشير السرور » لابن المعتز طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٥ .

وفى ١ : ٢٩٨ ا ٢ من المهم ذكره فى الحاشية أن كتاب « التيجان فى ملوك حِمْيَر » لابن هشام ، طُبع فى حيدر آباد سنة ١٣٤٧ هـ .

وفى ١ : ٣١١ ب ١ وَرَدَ ذكر كتاب جلستان . والصواب كلستان (راجع كشف الظنون ٥ : ٢٣٠ طبعة لندن أو ٢ : ٣٢٧ استانبول) .

وفى ١ : ٣٢٤ ب ٢٢ ذكر المترجمون « سفر إسحق » من أسفار التوراة . وقد استغربنا صدور هذا القول من اللجنة ، فليس فى التوراة كلها سفرٌ بهذا العنوان . والصحيح أنه « سفر اشعيا » وسبب وقوع هذا الغلط ، أن الأصل الفرنجى من دائرة المعارف الإسلامية يتخذ رموزاً مختصرة عند ذكر أسفار التوراة ، وذلك أمرٌ شائع بين المستشرقين والباحثين ، متعارف بينهم منذ عهد بعيد. فهم يرمزون لسفر اشعيا بهذا الاختصار Is. فظن المترجمون أنه اختصار Isaac يضاهى اختصار Isaiah ؟ وليت شعرى ألم تكن نظرة سريعة فى فهرست أسفار التوراة كافية للتخلص من مثل هذا الغلط؟

وفى ١ : ٣٢٣ ب من المفيد أن يقال فى الحاشية ، إن كتاب « الأضداد » للسجستانى نشره هفنر A. Haffner فى بيروت سنة ١٩١٣ ضمن « ثلاثة كتب فى الأضداد » (ص ٧١ — ١٦٣) .

ونظير ذلك ما كان يستحسن تعليقه على ١ : ٣٣٤ ب ١٣ من كتاب « المقابسات » لأبى حيان التوحيدى ، قد نشره حسن السندوبى (القاهرة ١٩٢٩) .

وفى ١ : ٣٨٦ ا ٩ تضاف المراجع التالية بعد ترجمة أبى العيناء

١ — طبقات الشعراء لابن المعتز (ص ١٩٦ — ١٩٧) .

٢ — معجم الشعراء للمرزبانى (ص ٣٨٤) .

٣ — مروج الذهب للمسعودى (٨ : ٢٠ — ١٢٥ طبعة باريس) .

٤ — كتاب الديارات للشابشتى (مخطوط . وقد حققناه وأعددناه للنشر) .

٥ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (٣ : ١٧٠ — ١٧٩) .

٦ — المنتظم لابن الجوزى (٥ : ١٥٦ — ١٦٠) .

٧ — معجم الأدباء لياقوت (٧ : ٦١ — ٧٣ مرجليوث) .

٨ — نكت الهميان فى نكت العميان للصفدى (ص ٢٦٥ — ٢٧٠) .

(البقية فى العدد القادم) كوركيس عواد

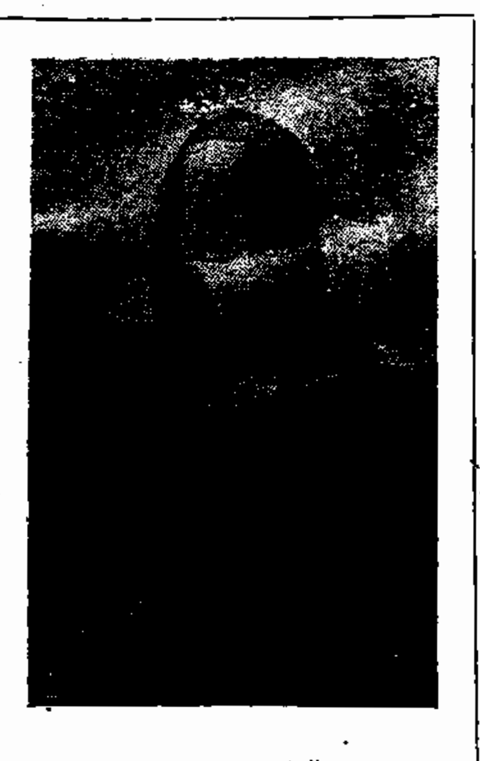
رسالة الفن

من الحياة والفن

قصـــة صورة

للأستاذ نصرى عطا الله سوس

يشارك العمل الفنى الخالد الحياة فى خلودها وعمقها وتجددها ، وتعدد الآراء فيها واختلاف وجهات النظر اليها ، غير أن العمل الفنى يمتاز على الحياة باشتماله على عناصر لا تستمد من الطبيعة الخالقة الموجبة ، بل من شخصية الفنان وعبقريته . فالعاطفة الزاخرة التى تحتضن الأكوان ، والخيال المتوفز المتقد الذى يبدع من صور الجمال ما لا وجود له فى الطبيعة ، والعقل النفاذ الذى يعاون العاطفة والخيال ... كل هذه عناصر إنسانية يشتمل عليها العمل الفنى الممتاز ولاوجود لها فى الطبيعة — وسر خلوده هو أنه خلاصة فترة من حياة رجل عظيم استطاع أن يسبر من أغوار الحياة ما لم يستطعه الناس ، رجل يتيح لهم — بفنه — مشاركته عواطفه وخيالاته وأحلامه . ونحن حين نتأمل عملا فنياً كبيراً نحس أننا فى صحبة إنسان كبير يقود خطانا نحو أقاليم شاسعة لم نرها ، ويفتح عيوننا على صور من الحق والخير والجمال لم نعرفها من قبل . فالعمل الفنى الكبير يفضل الحياة لأنه منبع السرور الإنسانى النبيل فى كل حين ، والحياة تسر حيناً وتحزن أحياناً .



موناليزا — متحف اللوفر

... ذلك هو الخاطر الذى جال بنفسى عند ما أردت أن أكتب عن « الجيوكانده » أو « موناليزا » أقيم أعمال الفنان الخالد « ليوناردو دافنشى » وأكثرها دلالة على شخصيته ونهجه فى الانتاج .

ولقد كان ليوناردو (١٤٥٢ — ١٥١٩) نجماً لامعاً من نجوم النهضة الأوروبية فى القرن الخامس عشر ، ونستطيع أن ننحى التاريخ جانباً ونقول إنه أحد الأفذاذ القلائل والعبقريات الضخمة فى تاريخ البشرية كله ، لم يجد معاصره « فاسارس » وصفاً يصفه به إلا قوله إنه قدس وإنه فوق مستوى البشر ، وقال عنه نيتشه « إن فيه شيئاً ضامتاً أعلى من مستوى الروح الأوروبية ، وهذه خاصية رجل تكشفت له الحياة عن محيط واسع جداً من الخير والشر » وقال هافلوك إليس : « عندما يلعب خيالنا بفكرة السوبرمان يرد لوناردو على خاطرنا كمثل من أمثلته المتقدمة »

عبر لوناردو مراحل المعرفة البشرية وقد وسمها عقله الكبير المتقد شغفاً بالحياة وكلفا بأسرارها ، ووقف عند تخوم المجهول يحدق فى ظلامه وخوافيه ويرسل عليه من نور عقله وإلهام قلبه محاولا ارتياد بعض أراضيه البكر التى لم يحلق فوقها فكر أو يشرئب نحوها فؤاد ... وكان يلميذ الحياة ، الحياة كلها : خافيها وظاهرها ، نظر إلى المعرفة البشرية فى شتى فروعها وصورها نظرته الى بعض من كل ، لا يجوز الوقوف عنده والاكتفاء به ، فكان مصوراً وموسيقياً وعالماً ومهندساً وشاعراً وفيلسوفاً وفى كل حالة كان رائداً مستكشفاً . ودأب الفنان أو المفكر العبقرى أن يجعل من عقله وقلبه « حقلا للتجارب » . إن الكون العظيم أمامه فلم يمد إلى معرفته عن طريق أفكار الناس وعواطفهم مهما عظم شأنهم ؛ إن به حاجة

للحياة فلم لا يعيش ويجرب ويتأمل ويدرك الحقائق عن طريق إحساساته ومشاعره وفكره ؟ وهكذا كان لوناردو ...

ولقد كان يؤمن كما آمن سبينوزا بعده أن الحقيقة والكمال شيء واحد . وقال مرة « إن العبقرية الإنسانية لن تستطيع أن تستنبط شيئاً أكثر بساطة وأكثر وفاء بالغرض من الطبيعة »

وأحرى بمن ينظر الى الحياة هذه النظرة ، أن ينظر إلى الإنسان نفسه نظرة عميقة فاحصة ، وجدير بمن يتأمل ذاته ويدرك ما تنطوى عليه النفس من أسرار وما يحتويه القلب من آماد لا يرتادها إلا العباقرة الأفذاذ ، ألا يقنع عند ما يعمد إلى رسم صورة إنسان بتسجيل اللامح والسمات وما قد يرتسم على صفحة الوجه من انفعالات سطحية عابرة ... إن الإنسان يولد في الكون الرحب الفسيح وفى فؤاده كون آخر قد يكون أرحب آمادا وأبعد أغواراً من الكون المنظور ، ولكنه يعيش فى الظلام صادفا عن الكون الذى حوله والكون الذى فى نفسه ، سادرا فى التفاهات معنيا بتوافه الأمور ، ولكن هو الذى يستطيع أن يسبر الأغوار لم لا ينتشل من الأعماق بعض المعانى والأسرار التى تحفل بها النفس وتبقى دائما كالنبع المطمور الذى تمر به الأجيال غير عابئة ولا ترسل له من ينقب عنه ويرفع الأستار . ولقد قال « إن فن التصوير نوع من الإبداع أتخذه وسيلة لتطبيق الأفكار والتأملات الفلسفية على خاصيات الأشكال طبيعية أو بشرية ، فرسم صورة لم يكن لديه إلا رحلة استكشاف فى مجاهل وخبايا الطبيعة الإنسانية ، وفى مثل صوره نطالع القوى والقيم الإنسانية التى قلما نحسها أو نحفل بها لأن حياتنا السطحية الرخيصة لا تستجيشها أو تهزها من رقادها .

ولقد وهب لونباردو حياته كلها لشيئين : الحق يلتمسه من كل طريق ويضنى نفسه باحثا عنه ، والجمال ينشده ويرجوه ويتبعه ، وهام أشد الهيام بشيئين هما حركة الحياة الجارية ، وبسمات الغيد . وكأنه رأى فيهما معانى تفكيره وتأملاته وأحلامه ، أو استبان فيهما رمزا للحياة وما تجيش به من معلوم ومجهول . والمياه الجارية ، كالأنهار والبحار ، حين ترفرف عليها روح الفنان وتناجيها تقول كثيراً وتفضى بأحاديث طويلة قد يفهمها القلب ولا يفهمها العقل ، ذلك لأنها لا تتكلم إلا بلغة الأبد ، إنها تلغز وترمز ولا تفصح أبداً .

... إنها ساكنة مرة وفى سكونها وداعة ، ساهمة مرة ، وفى سهومها وجوم وإطراق مثقل بالمعانى ، مترنحة فى بشاشة وحبور أحياناً ، مرغية مزبدة فى ثورة وعنف أحياناً أخر — وهى سافرة فى الفجر ، يتكئ النور الوليد على صدرها مغمغما فى شوق وحنان ، متلألئة فى الضحى تتقبل قبلات الشمس فى حبور ، باكية فى المساء مع الشفق ، وقد تتدثر فى الليل قناعاً كثيفاً من الظلام ، وتتلو صلواتها فى رهبة ووجل مما يخبئه الظلام ، وقد ترتدى غلالة شفافة من ضوء القمر وتغنى جزلة طروبة — وفى كل حال لها حديث ، وفى كل مرة لها مناجاة ... وما أحلى حديثها الحافل بالأحاجى والأسرار !

وبسمات الغيد ... ؟

بسمات العذارى والفتيات فيها خلاصة الحياة كلها عند ما تصفو الحياة من الأكدار وتترفع عن التفاهة والدنايا والصغار ، لأنها رمز للمرأة فى حالة الإقبال والصفاء ، وإذا أقبلت المرأة ، أقبلت الحياة ، وسخت بكل غال نفيس !

ففى الشفاه والوجنات بهجة الربيع ونضرته ، وتفتح وروده وأزاهيره ، وحرارته الحلوة التى تبعث الحياة من جديد وتشعل الحيوية الراكدة

وفى العيون تحتشد الأسرار العميقة المتلاطمة التى لا يسبر لها غور ...

وفيها السحر الذى يستبينا ، ونرى فيه لمحة مما وراء الوجود من خفايا وأسرار ، وفيها الحلاوة العذبة التى ترقينا ، وفيها القوة الآسرة التى تستبد بنا

ومن معانى الابتسامة الحنان ...

والحنان آصرة تآلف وامتزاج

وأسمى لحظات العمر عند الفنان — وعند الإنسان عامة — هى تلك التى يخرج فيها عن حدود ذاته ليمتزج بقوة أخرى ويصبح بعضاً منها ، ويمتلئ خاطره ووجدانه بالمعانى المستمدة من معانيها.

ومن معانى الابتسامة الفرح ، والفرح معدن الحياة الأصيل ، وهو الإحساس الذى يتوج أعمالنا وأفكارنا عندما يسيران وفق قانون الحياة ، وهى دليل السعادة ، والسعادة قبلة الحياة !

وفى الابتسامة شعاع من نور من لدن العلى القدير فاطر الحسن وبارئ آياته يشعر الإنسان أنه على مقربة من السماء مصدر الصفاء والضياء

إن ابتسامة المرأة — أحياناً — أكبر من المرأة ومن الحياة!

***

وكان لوناردو لا يرسم صور الأشخاص إلا في الضوء الباهت الخافت عندما تكون السماء غائمة، أو قبيل الغروب حين يمتلئ الجو بالإيحاءات المبهمة والنغمات الصامتة التي تغلف عواطفنا بسحابة رقيقة من الصوفية الغامضة المشوقة إلى المجهول وتكتسي الوجوه بذلك السر الذي يكسبها سحراً وحلاوة. وكان لا يتعجل ولا يعمد إلى الرسم في كل حين، بل كان ينتظر صابراً تلك اللحظات التي تتفتح فيها بصائرنا ونعيش في عالم أكبر وأحفل بالإحساسات من العالم الذي نعيش فيه عادة؛ كان ينتظر تلك اللحظات، لحظات الـ bien etre وعندئذ لا يبخل بالمجهود ولا يضن بالمشقة حتى إذا كان بعيداً عن مكان عمله. وكثيراً ما كان يقطع المسافات الطويلة ليصل إلى ذلك المكان وليعمل دقائق قليلة فقط! وفي هذه الدقائق كان الفنان يضيف إلى عمله جديداً يعتد به.

***

ترى لم اختار لوناردو «موناليزا» ليجعل من صورتها رمزاً لذلك اللغز الخالد الذي نسميه المرأة؟

هذا ما لا ندريه.

كانت «ليزا جيرالدين» إحدى بنات الطبقة الممتازة في فلورنسا وقد تزوجها «فرنسسكو دل جيوكندو» عام ١٤٩٥، ولم تكن على درجة رائعة من الجمال أو على شيء من الامتياز في بيئتها.

وعندما شرع لوناردو في رسم صورتها كانت في ربيعها الرابع والعشرين ولم ينته منها إلا عندما قاربت الثلاثين!

ولعله لم يعتن بعمل من أعماله الفنية مثلما اعتنى بهذه الصورة.

وواظبت ليزا على الحضور إلى مرسم الفنان كل هذه السنوات لتجلس أمامه جلستها الخالدة؛ وكان هو يجلب إلى مرسمه الموسيقيين والشعراء ليسمعوها أطرف ألوان الموسيقى وأبدع قصائد الشعراء حتى ينضح وجهها بذلك التعبير العبقري الذي حفظته لنا هذه الصورة الفريدة.

والصورة تمثل ليزا جالسة أمام شرفة رخامية وقد تجردت من كل الحلي والزينة، مرتدية ثوباً بسيطاً وعلى رأسها غطاء خفيف شفاف. وقد وضعت يدها اليمنى — وهي أجمل يد رسمت في تاريخ فن التصوير كله — فوق يدها اليسرى ومما يلاحظ خلو عينيها من الأهداب والجفون.

ونرى خلفها منظراً من مناظر الطبيعة في جبال الألب قوامه الصخور والينابيع الجارية — وهذا المنظر في حد ذاته لا يقل حيوية وحرارة عن الصورة نفسها وكأن لوناردو قد أراد أن يجمع كل شيء هامت به روحه في صورة واحدة. وقد وفق، فالصورة فيها تلك البسمة الخالدة. وما توحيه من معان، وفيها المياه الجارية وما تثيره في النفس من إحساسات.

وكان لوناردو مشغولا بأعمال أخرى كثيرة إلى جانب صورة «ليزا» ولكن هذه الصورة وحبها كانت تستبد باهتمامه وكان يعود إليها كما يعود المتعب المجهد إلى ملاذه الذي يجد فيه الراحة بعد العناء، والسعادة بعد الشقاء، والعزاء بعد الخيبة واليأس.

ولم يفرغ منها إلا بعد خمس سنوات. وقد اعترف أنه لم يفرغ منها تماماً.

ومنذ ذلك الحين و «الجيوكانده» نبع وحي وإلهام لا يغيض، فكم تحدث عنها واستوحاها الشعراء والفنانون والكتاب، وكم سجل عنها الأدب والشعر من روائع باقية، وما زالت «ليزا» توحي المعاني والأخيلة إلى عشاقها وعشاق الفن والجمال ... ولعلها — إذا أبقى عليها الزمن — ستظل مصدراً من أخصب مصادر الوحي والخيال.

ذلك لأن صورة «ليزا» خلاصة عناصر كثيرة: كان لوناردو عندما يجلسها أمامه يستنهض كل إحساساتها ويستجيش أنبل عواطفها ومشاعرها وأفكارها عن طريق ما كان يسمعها من موسيقى وشعر.

وأغلب الظن أنه لم يتقيد بالطبيعة تقيداً مطلقاً بل أضاف إلى ملامحها وتقاطيعها شيئاً من عنده ضنت به الطبيعة على «ليزا». والآلهة تحنو دائماً على كل عمل فني كبير فتنفح الفنان بعضاً من روحها وتهبه من سرها.

وصورة «ليزا» جمعت هذه العناصر على خير مثال.

إنها ليست صورة امرأة تعيش بعقلها وعواطفها وغرائزها في دنيا الناس الحافلة بالصغائر — أنها امرأة ولكنها ليست كالنساء يستغرق العيش في صورة المادية الخامدة الخاملة كل قوى الحياة في نفسها. إنها صورة امرأة تحررت وخرجت من الوجود الضيق لتعيش في الكون الكبير فاستيقظ كل ما في نفسها من

عناصر وملكات ، وغدت نفسها مرآة للكون الكبير .

أترى لوناردو أراد أن يجعل منها رمزاً لخلاصة ما يعتمل فى نفسه من معان ، وبدلا من أن يكتب كتابا يضمنه فلسفته رأى أن يرسم صورة ولم يجد خيراً من ملامح « ليزا » وتقاطيعها لإبراز ما تجيش به نفسه الكبيرة من معان وأحاسيس ؟ قد يكون ..!

فقد كان لوناردو كما قلنا ملاحاً متفحصا يجوب بحار الحياة التى لم ترها من قبله عين ، وكان يعيش دائماً فى المنطقة الدقيقة التى تفصل بين المعلوم والمجهول يفعم قلبه الشوق وحب الاستطلاع ويبهر عقله وعينه ما يتكشف له من عظمة وجلال وجمال .

ولقد أفلح لوناردو فى أن يحيط « ليزا » بمثل هذا الجو ويثير فى نفسها كل عوامله عن طريق ما كان يسمعها من شعر وموسيقى والنتيجة هى أن ارتسم على وجهها كل معانيه : فالتعبير الذى ينطق به وجهها فيه كثير من اليقظة والحيرة ولكن فيه أيضا شىء من الدهشة كأنها تحيا حياة غريبة لا تستطيع فهمها ولكنها حياة فاتنة فيها نوع من السحر الخفى . وفى عينيها شىء من الفتور كأنها متعبة ، ولكن فيها أيضا شىء من العزم والمضاء كأنها — رغم التعب — لم تمل ، وكم تحتوى هاتان العينان من أفكار غريبة وأحلام آبدة وإحساسات رقيقة غامضة .

وكم فيهما من سخرية وترفع ، وكم فيهما من الانطواء على النفس ورباطة الجأش كأن صاحبتهما تعيش « فوق المعركة » ...

ذلك بعض ما توحيه الجيوكانده ، وهو نفسه ما توحيه حياة لوناردو . ولكم سحر « تيوفيل جوتييه » من المرأة وشخصيتها وجمالها فى قصته « مدموازيل دى موبان » ولكنه وقف أمام الجيوكانده وقفة العابد المتأمل وقال : « من أى كوكب وفد ذلك الكائن الغريب ذو النظرة التى تعد باللذات المجهولة وذو التعبير القدسى السخرية ؟ إن لوناردو يضفى على أشخاصه طابع سمو يجعلنا نحس بالارتباك فى حضرتهم . إن الضوء الخافت فى عينيها العميقتين يخفى أسراراً محرمة على الغافلين ولفة شفتيها الساخرتين تلائم الآلهة الذين يعرفون كل شىء ويحتقرون فى رفق غلظة البشر .

« أى إصرار مقلق وأية سخرية مترفعة فى هاتين العينين الداكنتين وهاتين الشفتين المتموجتين كقوس الحب بعـــد إطلاق سهمه » .

« إن جبينها يشع ذلك الصفو الذى تحسه امرأة موقنة أنها أبدية الجمال ، وأنها أبعد شأوا من كل مثل الشعراء والفنانين »[1] .

وقال عنها الناقد الإنجليزى ولتر باتر ما معناه « إن فى وجهها خلاصة أفكار وتجارب الدنيا : فيه حيوانية اليونان ، وشهوانية الرومان ، وصوفية العصور الوسطى وما فيها من طموح روحى وعشق خيالى ، وفيعودة الوثنية وخطايا آل بورجيا . إنها أوغل فى القدم من الصخور التى تجلس بينها . وكأنها قد ماتت وبعثت عدة مرات وعرفت أسرار القبر وغاصت فى البحار العميقة ، واحتفظت لنفسها بسرها ، وساحت مع تجار الشرق سعيا وراء المنسوجات الغريبة . ولقد كانت — مثل ليدا — أما لهيلين الطروادية ، ومثل القديسة آن أما لمريم . ولم يكن كل هذا لديها إلا نغمات القيثار والناى وما فعلته بقسماتها وأجفانها ويديها[2] »

تلك هى قصة الجيوكاندة . فيالها من درس أحفل بالمعانى من أضخم الكتب ! إنها تجعلنا نؤمن بعظمة الإنسان ومجده إذا خلص من الدنايا وشغل نفسه بالمعانى السامية التى تحفل بها الدنيا ... إنها تعلمنا إلى أى آماد تستطيع أن ترق المرأة ... من منا يعيش مع « مونالزا » أياماً أو ساعات ولا يتبدل مثله الأعلى فى المرأة والجمال : إنها تسمو بأفكارنا وعواطفنا وتدخل على قلوبنا الفرح وتهز من قوى الحياة فى نفوسنا ما يجعلنا نستمرى طعم العيش ونجدد قوى الحياة ، وما يلبث أن يهتف فى نفوسنا هاتف يقول : لم لا نلتمس فى الحياة نفسها ماعثرنا عليه فى الفن؟ وهكذا يوجه الفن أبصارنا إلى أعلى ويعلمنا الإحساس بالجمال والتماسه فلا نقنع بما تقنع به النفوس الخاملة المستغلقة .

ولقد آلت هذه الصورة إلى الملك فرنسوا الأول واحتفظ بها فى فنتنبلو . ثم نقلت إلى قاعة لويس الرابع عشر فى قصر فرساى ثم استقر بها المطاف فى متحف اللوفر . وهناك سرقت مرة ثم أعيدت .

وآخر أخبار «الجيوكاندة» أن الهر هتلر قد نقلها إلى قصره الريفى فى برختسجادن وأنه ـ رغم متاعب الحرب والسياسة ـ يجلس أمامها كل يوم ساعات متـــأملا مستوحيا ولعلها تلهمه بعض العزاء .

نصرى عطا الله سوسى

(١) ترجمة بتصرف . (٢) ترجمة بتصرف

أشواق إلى الحرية ...

للشاعر عبد الرحمن الخميسي

هتفتُ : يا حريتي سمّيني !
هُمْ في ظلام العيش قيّدوني
لكنهم لن يطفئوا يقيني
فرقرقي سناكِ في عيوني !

إني وراء هذه القضبانِ
أرنو إلى رحابة الأكوانِ
أسألها عنكِ وعن هواني !
والقيدُ يا حريّتي يُدميني

أنا لكِ العصفورُ يا سمائي
أعتصرُ الأشواقَ من دمائي
أغرودةً وقّعها شقائي
على ربابي الثاكلِ الحزينِ

قد طالَ يا حُريّةُ اشتياقي
إلى عبوري مسبح الآفاقِ
تملأني الحبورُ في انطلاقي
حتى إلى مجاهلِ المنونِ !

أنتِ أنتِ يا حريتي تفكيري
فأيقظي بما أرى شعوري
هاتي جناحي ! أفسحي مطيري !
لبّيكِ يا عقيدتي وديني !

هذا أنا أحطّمُ الأغلالا
مُعتنقاً حريتي ، مختالا
مبتهجاً أقتحم الأهوالا
مُغرّداً للحقّ واليقينِ

أنتِ التي أوسعتِ لي حياتي
اشعرتني بأنني لِذاتي
أقسمتُ ليسَ تنحني قناتي
لغير خالقٍ الذي يُغنيني

أيّتها الحريةُ الحسناء
ترخصُ في سبيلكِ الدماء
وتلتقي الحياةُ والفناء
عندكِ يا أنشودةَ السنينِ

يا قوةَ التحريكِ والتحريرِ
لو كنتِ قد نبضتِ في الصخورِ
انتفضتْ كالحيِّ بالشعورِ
حتى ... لوقّع النورِ والدجونِ !

لولاكِ لم ينطلقِ الهواء
ولم يطفْ حول الدنى ضياء
ولم يكُ الوجودُ والأحياء
سوى طلول عالم سجينِ

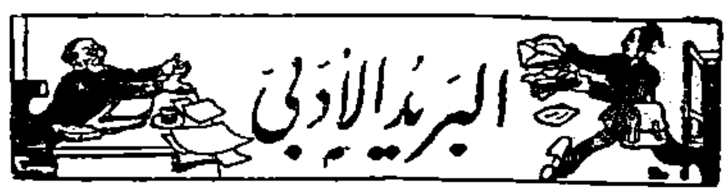
يا فرحةً موصولةَ الخلودِ !
بروحكِ القدّسِ السعيدِ ،
يهبُّ طيرٌ مُلْهَمُ النشيدِ
إلى سماءٍ طلْقةِ الجبينِ

يا ثورةً تطاردُ الهوانا
وتهدكُ الطغاةَ والطغيانا
وتمنحُ استقلالَهُ الإنسانا
وتبسطُ العدلَ مدى القرونِ

أيّانَ قامَ شرعُكِ الحبيبُ
تساوت الأفرادُ والشعوبُ
تخفقُ في صدورها القلوبُ
ريئةً من سُحُبِ الشجونِ

يا هبةَ الإلهِ للمخلوقِ
بسرِّكِ الهيّنِ الطليقِ
تقطعُ بي هناءتي طريقي
إلى خفايا السحرِ والفتونِ

حريتي أنتِ أعزُّ مالي
بها أحسُّ فتنةَ الجمالِ
ولا أرى بدونها كمالي
نشأها الرحمنُ في تكويني !



إلى الأستاذ الجليل صاحب « الرسالة »

كتبت الكلمة التي نشرت في العدد الأخير من الرسالة حين اطلعت على تلخيصكم كتاب الدكتور عمر فروخ. ثم اطلعت في هذا العدد على كتابه بنصه فعرفت أن الكاتب يدعى، والله يشهد أنها دعوى غير صادقة، أني سلخت من كتابه أربع قرائن: إشارة المعرى إلى نظم اللزوميات، والإشارات التاريخية وأشهرها قصة صالح بن مرداس، وإشارة المعرى إلى سنه، وإشارته إلى شيخوخته دون ذكر السن.

فأما الأولى فهي في كلام المعرى نفسه في مقدمة كتابه ولا يحتاج قارىء اللزوميات أن ينقلها عن أحد. وأما قصة صالح فيعرفها كل من قرأ تاريخ المعرى. وقد ذكرها الدكتور طه حسين في كتابه ذكرى أبي العلاء قبل ثلاثين عاماً، وفصّل القول فيها عبد العزيز الميمنى في كتابه عن أبي العلاء، وذكرت في كتب أخرى. وأما ذكر المعري سنّه وشيخوخته فكل من قرأ اللزوميات وفهمها يستطيع أن يتتبع الأبيات التي تحدث فيها المعرى عن عمره؛ فإن كان الكاتب يجادل في أني قرأت اللزوميات فمن شاء الجدال جادل، وإن كان يصدق أني قرأت اللزوميات فهل يصدق أني أمر بهذه الأشياء فلا أدركها وإنما أقرأ اللزوميات قاصداً تأريخها؟ ليعلم الدكتور عمر أني كتبت عن أبي العلاء رسالة قبل خمس وعشرين سنة وأني أكاد أحفظ اللزوميات حفظا.

ثم قد فطنت في بحثي إلى ما هو أدق وأخفى من هذه القرائن التي يدعى الدكتور عمر أني سلختها من كتابه؛ فطنت إلى ما خفي عليه ودق على فهمه، فعرفت إشارة المعرى إلى وفاة الحاكم الخليفة الفاطمى، وإشارته إلى وفاة الوزير المغربى، وبينت مَن محمود ومسعود اللذان ذكرهما ومَن آلك المذكور في قوله:

« سيموت محمود ويفنى آلك ». وفطنت إلى ترتيب الأوزان في اللزوميات، وهذه هي الدقائق التي تحتاج إلى علم بالتاريخ والأدب واستنباط.

فهل يدعى أني أخذتها عنه كذلك؟ أو هل يظن أن الذي استخرج هذه الخفايا دون سلخ من كتابه يعجز عن إدراك القرائن الواضحة التي ذكرها؟

وقد تكلم عن توارد الخواطر. وليس الأمر من باب توارد الخواطر؛ بل هي معان ماثلة وعبارات واضحة في شعر المعرى يدركها كل أديب. وليس فيها خواطر أو هواجس.

وقد قلت إني لم أطلع على كتاب فروخ قط، وقال هو إن كتابه أرسل إلى العالم العربي وإلى لندن، وأن « العالم الحقيق لا يهجم على عمل مثل هذا إلا بعد أن يتقصى المكاتب ويفتلى الكتب والمجلات ».

فأما إرسال كتابه إلى لندن أو إلى الصين فلا ينفي ما قلته صادقاً، إني لم أطلع حتى هذه الساعة على كتابه. وأما أن العالم ينبغي أن يتقصى المكاتب فقد أردت أن أستخرج من لزوميات أبي العلاء تاريخها فلم يكن لي مصدر سواها. وإن كان جهلي كتاب عمر فروخ عيباً فأنا لا أخفي عيبي وأقول خجلا: إني والله أجهل عمر فروخ أيضاً. وأقرّ بهذا الذنب، فليغفرلي ولا غضاضة عليه في هذا فقد جهلني هو فلم يعرف أخلاقي وسيرتي.

وبعد فقد كان حسب الدكتور عمر أن يقول رجل مثلي إنه لم يطلع على كتابه. كان هذا حسبه لو كانت أخلاقنا تستعظم أن يكذب باحث ديدنه طلب الحق مخلصاً. لو كان لنا نصيب من أخلاق العلماء لكان قولي فيصلا في القضية.

وأختم كلامي في هذا الموضوع بأن أقول: إني أرى من هواني على نفسي وضياع وقتي، أن أشغل نفسي بجدل ابتدأه صاحبه بهذا العدوان وهذا الافتراء وهذا التسرع. فلن أكتب من بعد في هذا الموضوع حرفاً. فمن شاء أن يجادل بالباطل ليعرّف بنفسه فلا حيلة لي فيه.

عبد الوهاب عزام

المعرى وعين سلوان:

أبو العلاء المعرى (نابغة الأدب العربي) أعجوبة من أعاجيب الزمان، فقد كان وهو منقمع قابع في حجرته يطل على الدنيا فيعلم مجهولا، ويرى خفياً.

هذه عين سلوان، قلّ من يعرف من أهل القدس خاصتهم

وعامتهم – وسلوان قرية تجاورهم – أن ماء تلك العين يقارب في ملوحته ماء زمزم .

إن أبا العلاء قد عرف ذلك ، وذكر الماء وعينها في شعره فقال في لزومية :

وبعين سلوان التي في قدسها طعم يوهم أنه من زمزم

وقال في لزومية أخرى :

سيحان للروم عذب ، ليس مورده ملحا كزمزم أو عين بسلوان

هذا المعرى الضرير ، في قلبه ألف عين .

(الوحدة) « السهمي »

رسالة إلى (الرسالة) :

عاد من رحلته إلى فلسطين صديقنا الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ وقد كان في هذه الرحلة القصيرة موضع التعظيم والتكريم والأستاذية : يُدعى فيجيب ، ويُستفاد فيفيد ، ويُستفهَم فيُفهم ؛ وفي العدد القادم سننشر أولى مقالاته بعد عودته وعنوانها : « رسالة إلى (الرسالة) » .

عتاب

قرأت بحثاً قيما للأستاذ فؤاد عوض واصف في العددين ٦٣٣ و ٦٣٤ من مجلة الرسالة تحت عنوان « التاريخ ما هو » استعرض فيه علم التاريخ وما دار حوله من نظريات منذ العصور الأولى حتى العصر الحاضر وحاولت عبثاً أن أجد ولو كلمة عابرة عن جهود العرب وخدماتهم في كتابة التاريخ وتطوره فلم أظفر بطائل ، ولعلّ ذلك راجع إلى أن الأستاذ اعتمد في كتابة بحثه على مؤلفات أجنبية تغفل في أكثر الأحيان فضل العرب والمسلمين . وإذا أجمع علماء الغرب مع الأسف على أمر خطأ لا يعني ذلك أنه سار صواباً ، وإذا كانت أوربا العصور الوسطى مظلمة تمزقها منازعات الملوك والأمراء وتفتك بها حروب دينية شعواء لا يعني ذلك أن أوربا هي العالم وأن تاريخها تاريخ العالم ، لأن العالم الإسلامي في ذلك الوقت كان يغمره النور ويسوده الأمن والسلام ، وإذا تعامى الغرب عن هذا النور فما أجدرنا أن ننبه أنفسنا وأولادنا والدنيا إليه .

جاء في المقال الأول « وحتى القرن الثالث عشر الميلادي كان التاريخ في معظمه وقائع وأخباراً دينية » وهو قول ينطبق على مؤرخي أوربا المسيحية ولا ينطبق على مؤرخي العرب أمثال ابن جرير والمسعودي وابن الأثير وغيرهم كثير لأن مؤلفاتهم ليست في معظمها أخباراً دينية ، إنما كانت تسرد أخبار الدول وأسباب قيامها وسقوطها ووصف البلاد مع صحة الأخبار ودقة الوصف ولا سيما ما اختص بالدول التي نشأت بعد الإسلام . كما أنه لم يشر إلى ابن خلدون شيخ مؤرخي العرب الذي قال عنه بحق الأستاذ « فلنت » الإنجليزي إنه « واضع علم التاريخ » مع أنه ذكر مكياڤلي « واضع علم الغدر السياسي » الذي ذاق منه العالم ولا يزال الشيء الكثير . أشكر الأستاذ على بحثه القيم الشامل وآمل ألا ينسى أجداده العرب حينما يمرون به في أبحاثه المقبلة لإنهم أهله وعشيرته وموضع فخره وعزته .

(غزه — فلسطين) حلمي أمارة

تحية الشعر :

[مهداة إلى الطبيب الأديب الدكتور مصطفى الديواني مؤلف « صديق العائلة »]

سألتك يا مصطفى فلتُجبني كتابك من أي سحر وفنّ ؟
كتابك علمٌ وشدوٌ معاً فهل كنت تكتبه أم تغنّي ؟
كتابك في الضاد حلم الزمان تحقق للناس بعد التمنّي
بلغت به منزلاً في الخلود يزيد على كلّ وهم وظنّ
وأقسم من يهتدي بهداه فقد لاذ من كل سقم بحصن
ومن عجب أن يصوغ الطبيبُ كتاباً أراه عن الطبّ يُغني !

(المنصورة) علي متولي صلاح

وطرابلس الغرب أيضاً :

قرأت ما سجلته مجلتكم الغراء في عددها ٦٣٥ للأستاذ حسن أحمد الخطيب بعنوان « مراكش العربية تستصرخ » فله خالص الشكر على هذه الروح العربية التي نتمنى أن نلمسها في كل كاتب .

وأحب أن أقول : إن بلادنا طرابلس الغرب التي تتاخم مصر من الغرب لها نفس هذه الاستغاثة وهي تطلب من جميع رجالات العروبة ومن جميع من يهمهم شأن البلاد العربية المقسمة بين الدول العظمى أن يلتفتوا إلى هذا الجزء من البلاد العربية التي تعتبر

وحدة لا تنفصم ، وأن يعيروه بالغ اهتمامهم وأن رقبوا بعين ساهرة متيقظة ما يجرى فى هـذه الأيام حول بلدنا المسكين من مساومة وجذب إلى اليمين وإلى اليسار ، وأن يعلموا أنه قطر مستقل استقلالا تاماً بمقتضى المعاهدة التركية الإيطالية سنة ١٩١٢ ، غير أن إيطاليا أضاعت ذلك الاستقلال وأبعدت ذلك القطر من المحيط العربى ، ويطلبوا — والحق يؤيدهم — إرجاع ذلك القطر العربى إلى ما كان عليه من الاستقلال .

وإن جميع الطرابلسيين لينظرون بتلهف إلى مجهود هؤلاء الرجال الذين نستطيع بمساعدتهم وحسن مسعاهم أن نشق طريقنا ظافرين منتصرين وهذا هو وقت العمل فإلى الأمام جميعاً .

(رواق المغاربة — الأزهر) **على محمد المسلاتى**

أول وزير

كتب الأستاذ محمود عزت عرفة فى عدد (الرسالة ٦٣٥) كلة تحت عنوان « قزد وحمار » ، ونقل فيها حكاية تروى عن ابن عباس من كتاب « نشوار المحاضرة » للقاضى التنوخى ، وفيها كلام عن الوزارة والوزير (وما كان يتهدد الوزراء يوم ذاك من خلع وقتل وحبس واستصفاء)

وقد تكون هـذه القصة صحيحة ، ولكن روايتها عن ابن عباس بعيدة كل البعد ، ذلك أن ابن عباس رضى الله عنه توفى فى النصف الثانى من القرن الأول ، وأذكر الآن أنه توفى فى حدود الثمانين ، وقد حضر مقتل عبدالله بن الزبير فى سنة ٧٣ من الهجرة وكان قد كف بصره فى ذلك الحين ، وأن أول من لقب بالوزارة أبو سلمة الخلال وزير عبد الله السفاح فى سنة ١٣٢ من الهجرة ، على أن ما كان ينال الوزراء من حبس وقتل واستصفاء لم يشع إلا فى القرن الثالث والرابع ، وإن كانت قد وقعت حوادث قبل ذلك لم تبلغ حد تبغيض الوزارة إلى الناس ، كما حدث مع أبى سلمة هذا ، ومع أبى مسلم الخراسانى ومع البرامكة

ومثل هذه الحكايات والأضاحيك التى تروج بين العامة إنما تتناول أمراً مشهوراً واضحاً بارزاً

فلعل الأستاذ أخطأ فنسب الرواية إلى ابن عباس ، أو لعله غفل عن خطأ صاحب « نشوار المحاضرة »

(بنباقادن) **على جمال الدين شاهين**

من هو ابن الحنفية ؟

قرأت كتاب « على ضفاف دجلة والفرات » للأستاذ طاهر الطناحى ، غير أنه لفت نظرى قول الأستاذ فى صفحتى ١٥ و١٠١ أن محمد بن على بن الحسين هو المعروف بابن الحنفية ، ولم أفهم حتى الآن أن محمد بن على بن الحسين عرف بهذا اللقب ، غير أننى أعرف أن ابن الحنفية هو « محمد بن على بن أبى طالب »

(الكويت) **فاضل خلف**

الشيخ ثابت فرج الجرجاوى

فى ضحوة يوم الأحد الثانى من سبتمبر الجارى ، توفى المغفور له الشيخ « ثابت فرج الجرجاوى » وقد جاء فى نعيه الوجيز أنه ... عالم جليل وخطيب مفوه ووطنى صادق ... ولكن قليلا من القراء من حملت إليهم هذه النعوت معنى خاصاً عن حياة الفقيد ، أو سجلت فى خواطرهم صورة واضحة من حاضره وماضيه .

عكف الفقيد منذ فجر حياته على الدراسة بالأزهر الشريف حتى أحرز فيه العالمية الأهلية ؛ ولكن حماسته الفطرية ، وتحفزه ونشاطه اللذين لازماه إلى آخر أيام حياته ، ثم موهبته الخطابية الممتازة ، ونعرته الوطنية الصادقة ، الجارفة ... كل هذه الخلال دفعت به إلى الانتهار فى تيار السياسة ، انتهاراً نبَّه من ذكره ورفع من شأنه ، وكشف للناس عن ينبوع ثَرّ من عبقريته ومواهبه.

وقد اعتقل الفقيد بين من اعتقلوا فى حوادث عام ١٩١٩ . ثم نفى إلى مالطة فى ركاب الزعيم الخالد سعد زغلول ، وكان هذا الحادث أنصع نقطة فى صفحة حياته ، كما كان يقول — غير مرة — عن صدق ويقين ، ولما استقرت الأمور فى نصابها وعاد إلى وطنه ، كان أحد أولئك الذين لم يلتمسوا من وراء جهادهم الثروة أو الجاه ؛ وإنما اندمج فى سلك التعليم يؤدى رسالته ساكناً متواضعاً ، حتى انتهى به المطاف بعد سنين إلى نظارة مدرسة أولية فى بلدته جرجا

وهنا تبدأ صفحة أخرى من حياته كان فيها رجلا « اجتماعياً » من الطراز الأول ؛ فما تأسس ببلده مشروع ، ولا دُعِى إلى

مصلحة عامة ، إلا كان أول ملبّ وأسبق مؤيد ومؤازر . خطب في مئات الحفلات ، ورثى وكرّم ، وودع ووعظ ، وصنع على يده وعينه جيلاً من الشباب كلهم يسلك نهجه ويأتم بهداه .

وكان شعر الشيخ ثابت متوسطاً في الجودة[1] ، ولكنه كان يضفى عليه الجمال كله بحسن إلقائه وتدفق بيانه . وكان إذا اعتلى المنبر شاعراً أو ناثراً ، يهدر هدير الفنيق ، ويزأر زئير الأسد ، فترجف حوله القلوب ، وتُشد إليه المسامع والأبصار . كان رجلا لحلا في قوله وعمله وأخلاقه ... بل وفي منظره ؛ فهو ابن الثورة وربيبها ومذكي ضرامها حقاً . وكان — على هذا — رقيق العاطفة حلو الدعابة بارع النكتة ، سمحاً نقى السريرة لا يكنّ لمخلوق عداوة ؛ ولقد شهدته غير مرة ينشج بالبكاء في مواقف الرثاء ، بل وفي بعض مواقف التوديع !

(١) له ديوان قديم يضم قصائده في الوطنية والسياسة ، ومجموعة أخرى حديثة تشمل ضروباً من شعره أكثرها في المراثي والاجتماعيات والاخوانيات .

ومن شعره الذى يدور على الألسنة منذ عهد الثورة قصيدته التي يقول في مطلعها :

وطني عزيز لا أروم سواه   مهما تسوّرت المدى مبناه

ولا تتسع هذه العجالة لإيراد شيء من كلامه ، وإنما نختمها بالإشارة إلى مبلغ نشاطه حتى في آخر لحظات حياته ؛ فقد كان رحمه الله — على إصابته بالفالج الجزئي منذ سنوات — يشغل منصب النظارة في مدرسة أولية كما ذكرنا ، وكان وكيلا ومدرساً بالمعهد الديني المنشأ حديثاً في جرجا ، ومدرساً بجمعية المحافظة على القرآن الكريم ، ورئيساً لرابطة التعليم الأولى والإلزامى ، ورئيساً لجمعيتي نهضة القرى ومنع المسكرات بجرجا . والغريب أن جميع هذه المنشآت يكاد يرجع إليه وحده فضل إنشائها !

تلك نبذة موجزة عن حياة الشيخ ثابت فرج نؤدى بها حق الوطن والتاريخ . والله يرحمه ويحسن جزاءه ...

(جرجا) محمود عزت عرفة



من الفن القصصي الحديث

حينما كان طبيباً !...

للكاتب الفرنسي هنري افران

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

قالت مدام « دى برسى » وهى تحاور زوجها : « إذا كنت تبغى أن تلم بهذا الشأن ، فألزم أذنك الإصغاء ... فسرده يعوزه الهدوء ريثما آتى عليه ... »

فنبس زوجها فى لهجة فيها شىء من الجفاء : « كشيشك ... إنى إذن صاغ إلى حديثك ! »

فعاد صوتها يرن ، وقد شابه الارتجاف كأنما ينم عن نفس مضطربة ، قالت : « حسن! ... إن الحياة معك لايمكن أن تدوم ، وسأتجلد حتى الصباح ... إنك رجل شريف ، لا شك فى ذلك ، ولا يمكننى أن ألصق بك عيباً ، فأنت لم تعمل يوماً على المخاتلة والخداع ... أما أنا فلا أقل عنك إخلاصاً ووفاء منذ ذلك اليوم الذى وقفنا فيه أمام القس يعقد لنا ... ولكنا أحسسنا بعد ذلك أن مشاربنا متباينة ، وإنى لأعلم أن ثمت أناس لا يقلون عنا تبايناً واختلافاً ... بيد أن حالتنا لا تطاق ، فكل إغاءة منى تكدر صفاءك ، وإنى لموقنة أن هذا الشعور متبادل بيننا : عندما أتحدث يزعجك ذلك ، وإذا ما ضحكت أنت تثير حنقى ، وكذلك صحتنا يموج بالحقد والبغض ...

هذا أمر لا يحق إغفاله ، فأنت تود ما لا أستطيعه ، وإنى لا أجد فيك بغيتى ومرامى ، لأنك بهلق ، لا تثبت لحديثى ولا تستملح إشارتى ، بل تعتقد أننى أنغص عليك عيشك فى كل عمل آتيه ، حتى وقع أقدامى وارتداء ثيابى ! أليس هذا هو عين الحق؟ إنى لألمح فيك — وأنا أتحدث الآن — نزعة إلى أن تهم بالقائى من النافذة »

فقال زوجها فى غمغمة : « حسن! ما ذا أيضاً ؟ ! »

— لقد انتهى بى الفكر إلى أنه يجب علينا أن يعيش كل منا على حدة ... ليس هذا بخطئى ولا بخطئك ... إنه خطؤنا معاً ... وعلى كل حال فهذه هى الحقيقة العارية عن كل لبس وريب ، فكلانا لم يخلق لصاحبه ، وربما كانت السعادة إذا ما انفصلنا ... ليس هناك ما يمنع من انفصالنا كأصدقاء ... فما رزقنا الله طفلا نتنازع عليه ، وكل منا له دخل يغنيه عن صاحبه

— لن أمحى باللائمة عليك ، فهذا هو السبيل الذى سلكه كل فرد من أهلك « آل برسى » من الأب إلى الابن ، وكان والداك — كما أنبأتنى — على غير وفاق ، لم يفلحا فى العيش معاً أكثر من أسبوعين ، وهذه هى العلة فى أنك الابن الوحيد لهما ... وأخيراً يجب علينا أن نقلب أوجه الرأى فى الطريق اللائق إلى الانفصال!

وكان « مسيو دى برسى » يتلقى ذلك السيل الجارف بهدوء وسكينة ، ويهز كتفيه من حين إلى حين ، أو يقلب شفتيه فى زفرات تنم عن نفس مضطربة أو قلب مكلوم ... راح يقطع الغرفة فى خطوات واسعة ، ويداه معقودتان خلفه ، كما كان يفعل « نابليون بونابرت » عند ما تسير الأمور بما لا يشتهى ... وإذا ما كفت زوجته عن الحديث وأجهها ، وأخذ يصعد فيها طرفه فى اضطراب من جرحت كبرياؤه ومست كرامته قائلا : أأفرغت جعبتك؟ »

— بلى ، لقد أتيت على كل ما كان يجيش فى نفسى

— إذاً ، كما تودين يا عزيزتى ... أنت ترغبين فى الانفصال ، وسأجيبك إلى طلبتك ، وسيعيش كل منا فى عزلة عن الآخر

— أنت حرى بأن تفعل ما تراه !

— شكراً ... ولكنى أمنعك من الاتصال بغيرى

— إن هذا لا يدور بخلدى ... إذا ما انفصلنا فسأعيش لنفسى ، ولن أجد فى طلبة غيرك ... لقد كنت مخلصة لك فى زواجى ، وسأظل على إخلاصى فى عزلتى ... أليس هذا ما ترمى إليه ؟ !

— لا ، ليس هذا كل ما أود ، فينبغى أن يعرف كلانا مصير صاحبه !

— مصير صاحبه ! إننا نعلمه جيداً ، راحة وهدوء ، ثم طعن في العمر ، وأخيراً إلى المقبرة حيث المثوى الأخير !

— ليس هذا ! دعيني أتحدث ! كل منا حر في اختيار مصيره ، ولكن هناك أمر يجب ألا نغفله ، فيحسن بنا أن نجعل هذا الانفصال بيننا فقط ، ويخيل إلى أنك تحبذين ذلك !

— حسن ، ولكن هذا السر لايلبث أن يذاع في النهاية !

— ليس طفرة واحدة ، فيخف وقعه ووطأته ، ولهذا يجمل بي أن أقول : إنه ينبغي أن نذر الرماد في أعين الأصدقاء ، لكي لا ندع لهم مجالا للظنة والريب ؟ فقالت الزوجة وقد اعتمدت رأسها بين يديها : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟ ! »

— مادمت قد صممت على الرحيل في الغد ، فلا يحسن بك أن تذهبي إلى أصحابك وأترابك في الريف أو في الخارج . إرحلي إلى بريطانيا ... هه ... ارحلي إلى « مينو » فامكثي هناك فترة لا يجد الضجر فيها إلى نفسك سبيلا ... إلى شهرين إذا أمكنك ذلك ... و « مدام بنارد » — مديرة قصرنا الريفي الذي نشأت فيه أن خلفني والداي — ستقوم على خدمتك والعناية بأمرك ما وسعها ذلك ... أرجو أن تخبريها بحضوري على الدوام

— وهنا لا تفكر في أن تأتيه ؟...

— بلى ، ولكن يجب أن تخبريها ، وهذا المكان يشيع فيه الجمال والإبداع في التنسيق على مسافة فرسخين من « جوراند » وعاصمة « باتز » ... وأعتقد أن قدميك لم تطأ هذه البقاع ... إنها مدرج طفولتي ومهد صباي ... إنها تفوق بريطانيا حسناً وروعة ... فلا تجعلي هذه الفرصة تمضي دون انتهازها !

— لقد حدثتني في لباقة وهدوء ، وإني لا أود أن أغادر بيتك هذا على سوء ... أبرق إلى « مدام بنارد » ، فسأرحل إلى « مينو » وسأمكث شهرين !

— شكراً ... سعدت مساء !

— لا ، بل قل وداعاً ... إنه فراق بيني وبينك !

ولم يرتعد صوتهما في هذا الوداع الأخير ... ولكن قلبيهما ... قلبيهما المعذبين ... كانا يخفقان ويرددان : « أهذا حق ؟ ! هل قطعت كل رابطة بيننا ؟ أيفارق كل منا صاحبه ؟ سترى أيتها الفتاة ... سترى أيها الفتى !

* * *

أقبل شهر مايو ، وهبت نسمات الربيع على الكون رخاء سجسجاً ... واتخذت « مدام دى برمى » أهبتها للرحيل إلى « مينو » في غدوة يوم أضحيان ... والشمس تدلف في خمول ، ولم تبلغ حرارتها أوجها بعد ... بدا الساحل في فتنة وروعة لا تدانيها روعة ... كأنه يبتسم لشعاع الشرق والصبح الوليد ... والأمواج تداعب رماله في رقة وهي تتسابق إليه كالطفل يهرع متعثراً إلى ذراعي أمه ... وتناثرت الخضرة في كل مكان ... والرمال تبرق صفحتها كالدر المنثور ... أنه لجو صحو يحلو لمن يبغى الهدوء والجمال ...

قضت « مدام دى برمى » أيامها الأول في تعرف محيطها الجديد . كانت سكناها في حجرة ذات جدر مكسوة بستائر صفراء مزركشة ... وتطل هذه الحجرة على مناظر رائعة ... فإلى اليمين السهل الفسيح وقد تناثرت فيه الصخور والنوآىء ... والشجيرات ذات العطر والبهاء ... وإلى اليسار يبصر المرء دغلاً من الأشجار « الصنوبرية » السامقة تصفر بين جذوعها الريح فكأنها عزيف الجن بالأرض العراء ...

أرسلت « مدام دى برمى » طرفاً شارداً إلى أمتعتها المبعثرة وإلى تلك الحجرة المنسقة ... فراحت تفكر جاهدة في تدبير غرفتها على نسق يلذ لها أن تراه ...

إن الطبيعة لَتُقَدِّم إلى أولئك اللائي يجتزن — مثل « مدام دى برمى » الأزمات الزوجية أجل المنافع ... فالهدوء والسكينة والطمأنينة تعيد إلى نفوسهن شيئاً من المحبة والشوق إلى أزواجهن بعد انفصالهن ، وتُسكن في قلوبهن ذلك الخاطر الحزين الذي طالما يطوف بهن ...

جلست «مدام دى برمى» تطوف الخواطر بخيالها ... وتعود الذكريات إلى نفسها ... فراحت تذكر أيام الطفولة البريئة الطاهرة ولُعَبها العديدة ، ثم عندما بدأت عيناها تنظر إلى الحياة ... وأول ثوب طويل لها ... وأول رقصة رقصتها ... ثم عندما كانت عذراء قبل زواجها ؛ وأخيراً تلك الحياة الزوجية ... كانت حياتها تنساب في غير تعثر ، فما كانت تحفل بالقصص والفجاءات ، ولا الحزن والمرح ... وإنما كانت تسير سيراً عادياً تحدده عناية الله

ومنذ تسع سنوات كانت تأوى إلى مضجعها والأمل يداعب نفسها للغد القريب ... وغابت التسع سنوات سراعاً ، وها هى ذى تماز المرارة والألم ... كانت تبغض زوجها وكذلك هو . وكثيراً ما كانت تُبدي هذا البغض في أعمالها ... أما هو فكان يبدى إستياء

عنـد سيرها ... أو ينفر من حديثها ... بل يتبرم به ... كانت أخلاقهما متباينة متنافرة ...

ما كان زوجها بالرجل المرح الذى تصبو إليه النساء ... بل كان جامداً عزوفاً عن المجتمع ... ولكن فيه فطنة وحدة ذكاء مع سمو فى الخلق وجلال فى الخلال ... ذو قلب مخلص حنون. هادىء ... بيد أنها تأبى أن تعاشره لاعتزاله المجتمع ونفوره منه ، بينما كان فى ريعان الحياة ... وكانت تحس أن السعادة ستوافيها رويداً فى عزلتها هذه ...

رضيت « مدام دى برسى » بصحبة « مدام بنارد » المدبرة الكهلة التى أقامت فى القصر منذ بنائه ... وكانت موضع تبجيل الجميع ... فلم تكن بالخادمة ... لقد ربّت « مسيو دى برسى » وعنيت بنشأته ... وما لبثت أن توثقت عروة المودة بين « مدام دى برسى » وبينها ... لأن هذه العجوز كانت مع شعرها الأبيض وثوبها البسيط الأسود ذات روح طيبة مرحة ونفس مجربة مدبرة ...

***

نهضت « مدام دى برسى » مع السيدة العجوز للتجوّل فى أنحاء القصر فقادتها إلى غرفة بالطابق الثالث ... وقالت وهى تدفع بابها : « إنى أرجو أن أطلعك على كل ما كان يمت إلى زوجك العزيز « مسيو دى برسى » فى صباه ؛ فهذه هى غرفة لعبه ونومه » وجذبت باباً لصوان عتيق مكتظ باللعب المختلفة وقالت : « هذه كانت لعبه عند ما كان لا يزال دارجاً صغيراً » .

ثم راحت تستعيد أغوار الماضى السحيق وتقول فى صوت خفيض : « انظرى ، ياسيدتى ... لقد كانت له عروس صغيرة يعبث بها ويقبلها ويقول : سيأتى اليوم الذى أتزوجك فيه ياعروستى . لقد كان على خطأ بلا شك ، فعنده اليوم زوجة ما كان يخطر له أن يقترن بها » فلم تنبس « مدام دى برسى » ببنت شفة !.. وعادت « مدام بنارد » تقول « إن هذا يثير كوامن نفسك بلا شك ! »

— « نعم ... يا مدام بنارد ! » فمادت السيدة العجوز فى عرض كل ما كان يخص « مسيو دى برسى » فى غرفة نومه ... وكانت كثيراً ما يتشعب بها الفكر فتذكر اسمه القديم « لويس » فتعجبت « مدام دى برسى » من جهلها بهذا الإسم مع زواجها بصاحبه .. ثم شاهدت غرفة دراسته وكتبه وكراساته ، وتناولت « مدام دى برسى » إحداها من المرأة العجوز التى كانت تقول فى شوق وشغف « انظرى ! . . كم كان خطه جميلا عندما كان صبياً ... »

وقرأت « مدام دى برسى » فى إحدى الصفحات عبارة بخط كبير « أين هو الحب ؟ ! » ثم قالت « أود أن أخرج لأتنسم الهواء ، فإنى أشعر بدوار ... » .

مضتا فى صمت إلى الحديقة ... وكان نسيم البحر يلطف من جوها ويصفر فى أنحاء الغابة الصنوبرية . وراحت السحب تمشى على مهل فى صفحة السماء ...

بلغت المرأتان شفير بحيرة تسبح فى مائها الأزرق الساجى بجعتان ناصعتا البياض تسميان : « جوبتر » و « جانو » ... فتمتمت مدام بنارد قائلة : « هذه هى البحيرة التى كان يقطعها سابحاً بزورقه ... عندما كان صبياً ... وقد كادت أن تطويه يوماً فى مائها ... إنى لأذكر هذا اليوم طيلة حياتى » ...

وأدركتا نهاية المزرعة حيث كان ثمت مقعد قديم دارس نمت عليه الحشائش وكسته الأزهار ... قالت مدام بنارد : « هذا مقعده حيث كان يجلس للقراءة ... » .

وفى جولتهما مرتا بفسيح من الأرض الخضراء ، فارتفع صوت « مدام بنارد » قائلة : هذه هى الحديقة التى كان يفضلها ويقوم فيها برياضته ... » .

وعندما مرّتا باصطبل للخيل ... علقت فيه السروج والمزاود والسوط قالت مدام بنارد : « كان يقطن هنا بونيفاك ! » .

— « ومن بونيفاك هذا ! ؟ . »

— « فرسه الصغير ... »

وتنقلا من مكان إلى آخر حتى أتمتا سياحتهما وشاهدتا صحن الدار والحدائق والأدغال والريف المحيط بالقصر والطريق وفروعه وكل ما كان يخصّ « لويس » من أماكن كان يرتع فيها لاعباً أو لاهياً ، ويجلس فيها قارئاً أو كاتباً ...

كانت آثاره فى كل مكان ... فما تقدمت مدام دى برسى خطوة حتى بصرت بأثر جديد ينم عن زوجها إبان صباه ... وقد لوّحته الشمس ودرّسته صروف الدهر ...

فلمّا انقضت الجولة وآوتهما الدار من جديد ... قصدتا البهو حيث جلستا فى فرجة شرفة تطل على البحر بأمواجه الراقصة ... وراحت مدام بنارد تسرد قصة « مسيو دى برسى » فى

طفولته وصباه فى لهجة صادقة مخلصة : « لعلك تدرين أن والديه كانا على قسط وافر من القرابة ... ولكنى أدرى منك بذلك ... قلما اتفقا على شيء ... ولم يكن أحدهما غريباً عن الآخر ، ولكن أخلاقهما كانت غريبة حتى أنهما عاشا منفردين طيلة زواجهما الذى لم يجتمعا فيه إلا أياماً معدودة ... فإذا حضر الوالد إلى هنا ، كان على المرأة أن تغادر القصر على الفور ... كان كل منهما مشغوفاً بسيدى « مسيو لويس » فهو ابنهما الوحيد ... فتفضلا أن يدعاه هنا فى كنف ... فقمت أرعاه وأحدب عليه ما وسعنى ... فكان لى كل شيء فى هذه الدنيا ... وقضى والداه نحبهما وما زال فى المهد صبياً ... لحزن عليهما هذا التعس الشقى وكأنه يعرفهما حق المعرفة ، ولو أنى قضيت لما بكى علىّ بكاءه عليهما مع أنى ربيته ورعيته

إنى أحيطك علماً بذلك يا سيدتى لكى تكونى على بينة من الأمر إذا لم يكن قد أفضى إليك به ... وينبغى عليك أن تشفق عليه فهو شقى تعس ، وأحياناً تضطرب أعصابه فيثور ويهيج ويخرج عن طوره وهدوئه ؛ وما هذا بذنبه ... ولكن يرجع إلى والديه ، وإسراع المنية إليهما وهو لا يزال المهد ... فلو أنه عاش فى طفولة غير هذه الطفولة ... لكان رجلا آخر ... » .

ظلت هذه الذكريات تنساب من ثغر مدام بنارد فى إسهاب وإطناب ... حتى أقبل المساء إلى الكون ، وأخذ الشفق ينشر فى الأفق رداءه الأرجوانى الرائع ... وحينئذ سألت « مدام دى برسى » عن مصباح يمزق تلك العتمة التى بدأت تثقل وتقتم ... أما « مدام بنارد » فلم تلمح تلك اللمعات التى تألقت على وجنتى مدام دى برسى تجففهما فى سكون ...

وأخيراً وجهت « مدام دى برسى » الحديث إلى المرأة العجوز وهى تنهض قائلة « يسرنى ويبهجنى ما تحدثتِ به عن زوجى العزيز يا مدام بنارد ... » وضغطت على يدها فى تأثر ... فعجبت مدام بنارد لهذا التأثر ، ولم يكن هذا آخر عجبها إذ أن « مدام دى برسى » بعثت معها ببرقية لترسلها من مكتب « جوراند » إلى باريس ...

ولم تكن تدرى ما احتوته هذه البرقية ... ولكن علمت أنها وصلت باريس هذا المساء وحضر « مسيو دى برسى » فى اليوم التالى

(طنطا)   **مصطفى جميل مرسى**